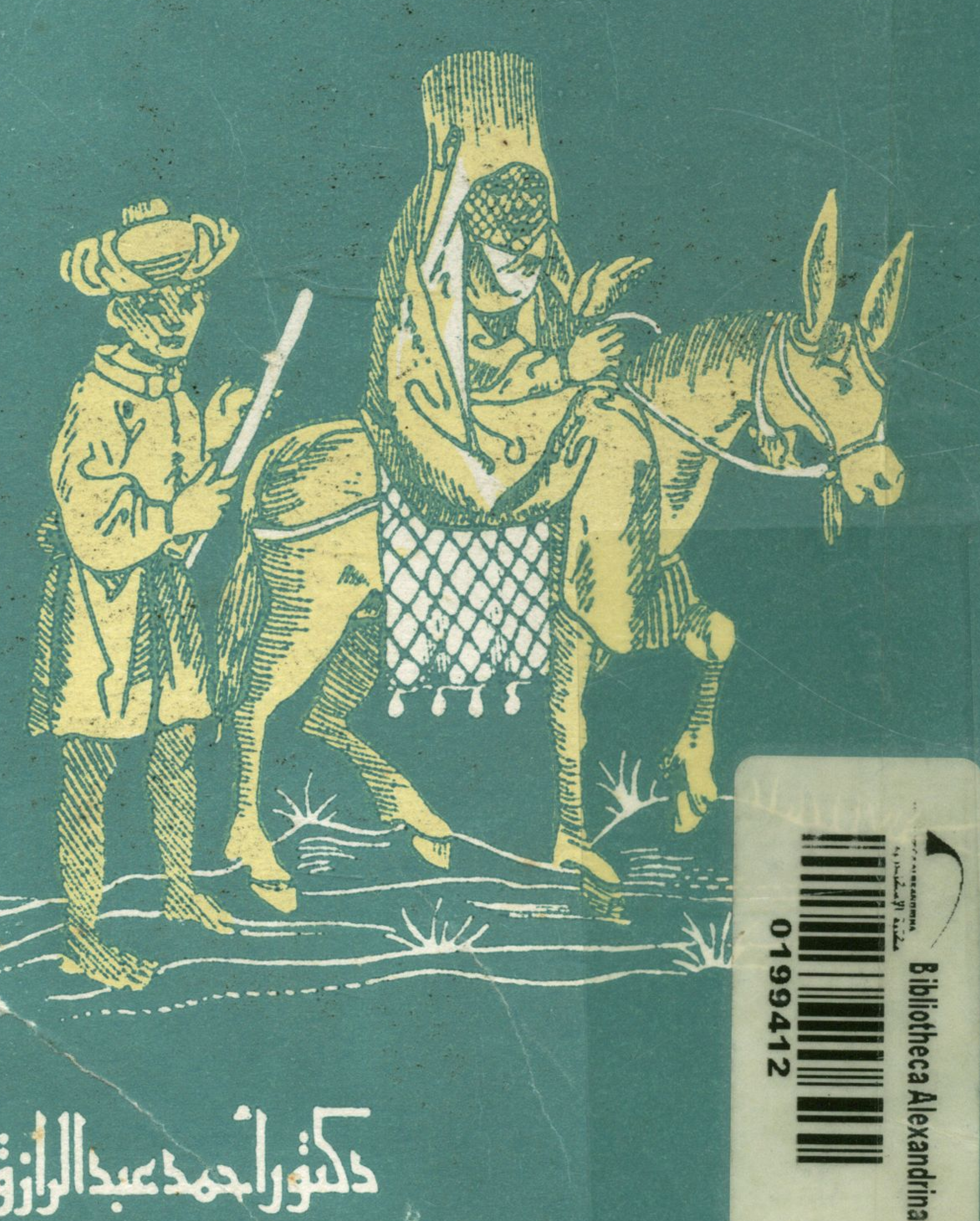
المرأة في مصر المملوكية



دكتور أحمد عبد الرازق

المرأة في مصر المملوكية

دكتور أحمد عبد الرازق
مدرس التاريخ والحضارة الاسلامية
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

الناشر
مكتب الشريف وسعيد رافت
١٩ (أ) ش الليث الزيتون

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة . الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

ان كل ما كتبه الرجل عن المرأة يجب أن يؤخذ بشيء من الحـــذر . لقد كان الرجل الخصـــم والحكم .

« بولان دى لابار »

مقدمة

يعد عصر سلاطين المماليك من أزهى عصور تاريخنا القومى ، ولا زالت آثاره المادية ان لم تكن الروحية ـ شاخصة بين ظهرانينا الى اليوم . فالدولة المملوكية التى عاشت زهاء قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ ـ ٩٢٣ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧) ، تعد من أغنى الدول بسلاطينها وحكامها الأقوياء أمثال بيبرس والمنصور قلاون وابنه الناصر محمد وغيرهم من السلاطين الذين شيدوا امبراطورية شاسعة الأرجاء ممتدة الأطراف ، استطاعت صد المغول ، ووقفت فى وجه الصليبيين . وخطب ودها ملوك أوربا وآسيا . وانتقل فى عهدها مقر الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة ، وطبعت أيضا نظام البلاط المملوكى بطابع خاص لم يكن موجودا من قبل ، ونظمت الدواوين وحددت اختصاصات كبار الموظفين . وأسست أول جيش ثابت فى مصر فى العصور الوسطى ، وحفل عهدها بقضاة ضربوا أحسن الأمثال فى الاعتداد بالرأى والذود عن الكرامة ، ونساء صرن يدبرن أمور الدولة من لاية وعزل .

غير أن المكتبة العربية لا زالت تخلو من المؤلفات الحديثة التى تبحث عن دور المرأة ومكانتها على عصر سلاطين المماليك ،

وذلك على الرغم مما امتاز به هـذا العصر من كثرة المصادر والمراجع التى تبحث فى مختلف العلوم والفنون • ولعل مرجع هذه الندرة الى أن البحث فى هـذا الفـرع من الدراسات الانسانية المتعلقة بالنـواحى الاجتماعية ليس بالأمر السهل اليسير ، خاصة وقد لمسنا أثناء اعـدادنا لهذه الدراسة مدى الصعوبة التى يمكن أن تواجه الباحث فى هذا الفـرع من الدراسات ، اذ كانت الصعوبة الأولى التى عرضت لنـا هى تحديد أبعاد الموضوع مع ارتباط دور المرأة فى المجتمع المصرى بشتى نواحى النشاط البشرى فى تلك الفترة • هذا بالاضافة الى قلة المادة المتعلقة بنساء هـذا العصر وتشتتها فى بطـون المصادر والمراجع المعاصرة خاصة فيما يتعلق بالمـرأة المصرية وحياتها • ويبدو أن منشأ هذه الصعوبة مرده الى أن البحث فى الحياة الاجتماعية فى أى عصر من العصور المصرية الاسلامية يرتبط الى حد كبير بالتقاليد الشرقية ، وما تتصف به هـذه التقاليد من محافظة شديدة ، لا سيما فيما يتعلق بالأحـوال العائلية والمنزلية ودور المرأة فى المجتمع وربما نظر كتاب عصر المماليك الى هذه النواحى على أنها أشياء عادية مألوفة للجميع ومن ثم فلم يعنوا بتسجيلها حرصا على عدم اضاعة وقتهم • هذا بالاضافة الى ما عرف به التاريخ فى ذلك الوقت من أنه كان ربيب السلاطين والامراء والقصور والمدن لهـذا فليس

يعجيب أن تفيض المراجع المعاصرة بأخبار نساء أفراد المماليك دون غيرهم من نساء هـذه الفترة وعلى هـذا فقد تطلب منا التأريخ لحياة المرأة فى مصر المملوكية ـ دراسة كل ما وصلت اليه أيدينا من مؤلفات ومراجع معاصرة فى مختلف العلوم والفنون ، كالتاريخ والتراجم والخطط والجغرافيا والفقه والتصوف والأدب ، وغيرها من المعارف العامة وكتب الأدب الشعبى من قصص وبلاليق وأمثال وتمثيليات وغيرها • وثمة نوع من المراجع أوليناه عناية خاصة هو القصص المصرى من ألف ليلة وليلة ، الذى كثيرا ما أمدنا بصورة صادقة عن دور المرأة فى تلك الفترة ، وان كثرت فى هذا النوع من القصص بعض الألفاظ البذيئة مما تستحى منه الأذن والعين • على أن هذه العيوب كلها لا تقلل اطلاقا من أهمية ذلك التراث الضخم الذى تتضح من خلاله شخصية المرأة كزوجة وكأم •

هذا بالاضافة الى عقود الزواج وغيرها من الوثائق التى وصلتنا من هذا العصر لما جاء بها من معلومات على جانب عظيم من الأهمية ، لا غنى عنها للباحث فى هذا الفرع من الدراسات الانسانية لما احتوت عليه فى بعض الأحيان من قوائم الجهاز التى تكشف لنا عن الكثير من عادات وتقاليد هذا العصر فيما يتعلق بالملابس وغيرها من الأشياء التى كانت تعطى للعروس •

وتتراءى هـذه العادات والتقاليد أيضا فى ملحوظات

الرحالة الشرقيين والأجانب الذين زاروا مصر فى العصر المملوكى ، لأن كثيرا من هذه العادات قد تبدو فى أعين المعاصرين من أهل البلاد شيئا عاديا مألوفا ، على حين تظهر غريبة بالنسبة لأولئك الرحالة فتعرضوا لها بالوصف الممتع وأحيانا بالنقد المفيد كما عودنا الفقيه المغربى ابن الحاج العبدرى الذى أقام بمصر على عهد سلاطين المماليك ، والذى كثيرا ما حمل حملة شعواء على عادات وتقاليد نساء عصره من المصريات .

بيد أننا لم نقصد من تعداد الصعاب التى واجهتنا أثناء اعدادنا لهذا الكتاب أن نبين للقارىء قدر هذا الجهد الذى بذل فى التأريخ للمرأة فى مصر المملوكية فهذا أمر متروك لأفقه وسعة تقديره ، وانما قصدنا أن نلتمس منه سعة الصدر ورحابة الافق فيما عسى يظنه موضعا للنقد .

ونسأل الله أن نكون قد وفقنا فى هذه المحاولة المتواضعة لاعطاء صورة صادقة ، واضحة المعالم لدور المرأة ومكانتها على عصر سلاطين المماليك ، والا فحسبنا أن نكون قد وجهنا النظر اليها والى الدور الهام الذى قامت به فى ذلك العصر .

العجوزة فى ٢٥ نوفمبر ١٩٧٤

أحمد عبد الرازق

الفصل الأول

مكانة المرأة فى المجتمع

مكانة المرأة فى المجتمع

لا شك فى أن رقى أى مجتمع من المجتمعات يقاس دائماً بمدى تقدير ذلك المجتمع للمرأة ، واستجابته لمنحها حقوقها كاملة بوصفها الشريكة الأولى للرجل وساعده الأيمن فى تحمل أعباء الحياة ، فالمرأة هى الزوجة التى تدبر شئون الأسرة التى تعتبر الخلية الأولى للمجتمع ، وهى الأم المسئولة قبل غيرها عن تنشئة المواطن الصالح والزوجة الصالحة .

حقيقة أن الشريعة الاسلامية قد فرقت بين الرجل والمرأة فى بعض الحقوق ـ مثل حق الارث ومسألة الشهادة على الديون والمواثيق ـ الا أنها أعطت للمرأة حقها كاملا فى المجتمع الاسلامى وحققت لها العدالة فى المعاملة بعد أن رفع عنها القرآن الكريم لأول مرة لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المرذول ، فكل من الزوجين قد وسوس له الشيطان واستحق الغفران بالندم والتوبة غير أن مركز المرأة من الناحية القانونية فى التاريخ الاسلامى كان شيئا ، ومركزها العملى فى الحياة اليومية كان شيئا آخر ، فقد أسهمت المرأة بدور بارز فى مختلف

نواحى النشاط فى الامبراطورية الاسلامية وظهر هذا الدور أوضح ما يكون فى مصر على عصر سـلاطين المماليك أى فى الفترة الممتدة من سنة ٦٤٨ الى سنة ٩٢٣ هجرية .

تمتعت المرأة فى ذلك العصر بقسط وافر من الاحترام ، سواء كان ذلك داخل طبقة المماليك الحاكمة أو عند سـائر طبقات الشعب ، فالمماليك نظروا الى نسائهم نظـرة تفيض بالاجلال والتقدير تجلت فى تلك الألقاب العديدة التى خصصت لهن مثل ، بركة الدولة وبركة الملوك ، والسلاطين ، وجـلال النساء ، والجهة الكريمة ، والجهة الشريفة ، وذات الحجـاب المنيع ، وخاتون ، وخـوند ، والجليلة ، والدار ، والدرة ، والستارة ، والستر الرفيع ، وسليلة الملوك والسـلاطين ، والشريفة ، والعفيفة ، وغصن الاسلام ، وفرع الشجرة الزكية ، وقرة عين الملوك والسلاطين ، والمحجبة ، والمصونة ، والمعظمة ، وغيرها من الألقاب[١] وعبارات التبجيل التى تبدو بوضوح فى مكاتبات السلاطين لبناتهم وزوجاتهم وأخواتهم[٢] .

---

(١) انظر الفصل الخاص بألقاب المرأة فى دراستنا عن المرأة على عصر سلاطين المماليك :

La Femme au temps des Mamlouks en Egypte, Le Caire, 1973, pp. 89-120.

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ١٦٦ .

ولم يضن سلاطين المماليك على نسائهم بالمال والمتاع ، اذ يحدثنا خليل بن شاهين فى كتابه « زبدة كشف الممالك » أننا « لو أردنا وصف ملبوس كل منهن وتجمل بيوتهن لاحتجنا الى عدة مجلدات »(٣) . وحسبنا أن احدى زوجات السلاطين لما حصرت ثروتها بعد وفاتها بلغت أكثر من ستمائة ألف دينار(٤) ، أما خوند زهرة ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاون وزجة الأمير طاز فقد خلفت ثروة طائلة تحدثت عنها المراجع المملوكية ، من جملتها قبقاب مرصع بلغت قيمته أربعين ألف درهم ، ثمنها ألفا دينار مصرية(٥) ، ويروى أيضا أحد المعاصرين أن موجود خوند جلبان احدى زوجات السلطان الأشرف برسباى قدر عند وفاتها بحوالى سبعين ألف دينار(٦) .

وقد اعتاد بعض سلاطين المماليك أن يستصحبوا معهم حريمهم فى نزهاتهم الخلوية وعندئذ يخرج حريم السلطان على الخيول فى محفات مغشاة بالحرير يحيط بهن سائر الأمراء

---

(٣) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ .
(٤) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ .
(٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٨١٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ .
(٦) ابن حجر ، أنباء الغمر ، جـ ٢ ، ورقة ٢١٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ١٧ .

والمماليك والخدام بعد أن يطرد ســـائر الناس من الطرقات وتغلق الحوانيت . اذ يروى المقريزى أن السلطان الناصر محمد ابن قلاون اصطحب معه فى احدى المرات الحريم من القلعة الى الجيزة ، فطرد سائر الناس من الطرقات ، وغلقت الحوانيت ، ونزلت خوند طغاى زوجة الســلطان ، والأمير أيدغمش ماش يقود عنان فرسها بيده وحولها سائر الخدام مشاة منذ ركبت من القلعة الى أن وصلت الى النيل فعدت فى الحراقة(٧) .

واذا خرجت زوجة السلطان أو أمه للحــج فانه يجهزها جهازا عظيما فتخرج فى برج كبير وعلى محفتها العصــــائب السلطانية وتضرب الطبول والكوسات حولها ويتبعها « قطار » من الجمال المحملة بكل أصــناف الكماليات ، فى حين يأمــر السلطان عددا كبيرا من الأمراء بمصاحبتها فى الطريق ولندع المؤرخ ابن اياس يصف لنا موكب خوند فاطمة زوجة السلطان الأشرف قايتباى عند خروجها عام ٨٧٩/١٤٧٤ لأداء فريضــة الحج « وفى هذه السنة حجت خوند فاطمة زوجــة السلطان وهى ابنة العلاى على بن خاص بك ، فكان يوم خروجها الى السفر يوما مشهودا ، وكان لها الموكب حافل ، فخرجت فى محفة

---

(٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٤٠ ؛ العينى ، عقــد الجمان ، جـ ٣٢ ، ورقة ٣٨٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجــوم ، جـ ٩ ، ص ٧٤ .

بزركش برصفيات لؤلؤ مرصعة بلخش وفيروز، وخرج صحبتها أخت السلطان فى محفة زركش أيضا وخرج معها خمسون حملا من المحاير المخمل الملون ومشت قدام محفتها بالرملة جميع أرباب الدولة وهم : كاتب السر ، وناظر الجيش ، وناظر الخاص ، وغير ذلك من المباشرين ، ومشى الزمام ، ومقدم المماليك ، وأعيان الخدام بأيديهم العصى ، وقدامها من الحداة أربعة منهم ابراهيم بن الجندى المغنى ، وأبو الفوز الواعظ ، وغير ذلك ، فكان لها تجمل زائد قل أن يقع لأحد من الخوندات مثلها فعد ذلك من النوادر[٨] » .

وعند عودة الحاجة الى مصر بعد قضاء شعائر الحج كثيرا ما يخرج السلطان لاستقبالها عند بركة الحاج خارج القاهرة أو يحتفل بقدومها احتفالا عظيما ويسرع الأمراء بتقديم الهدايا الثمينة اليها[٩] ، ويكفينا أن نشير هنا الى الاحتفال الذى أقيم بمناسبة عودة خوند زينب زوجة السلطان اينال من الحجاز الشريف ، اذ مشى الأمراء أمام محفتها حتى طلعت الى القلعة والجميع مشاة أمامها وحمل الأمير فيروز الزمام على

---

(٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ .

(٩) المقريزى ، السلوك جـ ٣ ص ١٨١ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ ؛ محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ١٤٥ .

رأسها القبة والطير وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى أن جلست على المرتبة بقاعة العواميد ونثر على رأسها خفائف الذهب والفضة ، ثم دخلت اليها التقادم من الأمراء والمباشرين وكان ما أهداه ناظر الخاص اليها قندورة مثلث ذهب ولؤلؤ وريش بلغ مصروفها ما يزيد على اثنى عشر ألف دينار وهذا خارج عن بقية التقادم الأخرى[١٠] .

واذا سمع السلطان بمرض احدى زوجاته أو بناته فانه لم يكن ليتردد فى معاودتها مرارا[١١] ، أما اذا وجد حالتها تستدعى تغيير الجو فانه يسمح لها بالنزول الى بولاق حتى تتمتع برؤية النيل «ويذهب عنها الوخم»[١٢] . وعندما يتم شفاؤها يحتفل بذلك احتفالا عظيما . فيتردد عليها أعيان الدولة من الأمراء والقضاة والأكابر للتهنئة ، ويجتمع عند بابها أرباب الزمور والطبول والملاهى ، وتعمل فى النيل مرامى النفط والصواريخ ثم تعود خوند الى بيتها بالقلعة فى موكب رائع وحولها المشاعل والشموع والفوانيس كما حدث لخوند زينب زوجة السلطان اينال ، اذ خرجت البنت من خدرها بسبب الفرجة

---

(١٠) محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ٥١ .

(١١) Ahmad 'Abd ar-Räziq, La Femme, p. 4.

(١٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .

وكانت ليلة الاحتفال بشفائها فى بولاق من الليالى المشهورة ، ثم طلعت الى القلعة فى محفة وحولها الخوندات والستات وأعيان نساء الأمراء والمباشرين حيث أقيم لها مهم حافل هناك دعى اليه أكابر الدولة وأعيانها[١٣] .

بيد أن مظاهر التكريم التى تمتعت بها المرأة فى مصر على عصر سلاطين المماليك لم تقتصر فقط على حياتها بل كثيرا ما امتدت الى ما بعد مماتها وانتقالها الى العالم الآخر ، اذ تشير المصادر المعاصرة ، أنه عند وفاة احدى زوجات السلطان أو الأمراء فانها كانت تخرج فى بشخانة زركش[١٤] ويمشى أمامها القضاة الأربعة والأمراء المقدمون وينزل السلطان والخليفة وكل موظفى الدولة للصلاة عليها[١٥] ويعمل مهما عظيما ويكثر السلطان أو الامير من توزيع الصدقات والأموال على روح

---

(١٣) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩ ؛ ابن اياس بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .

(١٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ ؛ جـ ٣ ، ص ١٨ ؛ الجوهرى ، أنباء الهصر ، ورقة ١٧٠ أ ، ١٨٦ ب .

(١٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ١١٤ ؛ الجوهرى ، انباء الهصر ، ورقة ٧ أ ، ٥٢ أ ، ١٨٦ أ ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٢ ، ورقة ١٤٠ أ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٦٥ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ ؛ جـ ٣ ، ص ١٨ .

الفقيدة[١٦] ، وفى بعض الأحيان كان يحتفل أيضا بأول جمعة تمر على وفاتها حيث يأمر السلطان بصنع مائدة حافلة يدعو اليها الخليفة والقضاة وأغلب الأمراء المقدمين وكذا قراء البلد قاطبة والوعاظ لاحياء الذكرى بآيات من القرآن الكريم ترحما على المتوفاة[١٧] .

والواقع أن ذلك الاحترام الذى تمتعت به المرأة فى عصر المماليك لم يقتصر على نساء السلاطين وأمرائهم ، اذ هناك من الشواهد ما يثبت أيضا احترام عامة الشعب المصرى فى ذلك العصر لنسائهم ، وخير شاهد على ذلك تلك الألقاب العـديدة التى أطلقها الناس ، على نسـائهم وبناتهم مثل ست الخلفاء ، وست التجار ، وست العلماء ، وست الفقهاء ، وست القضاة ، وست الناس ، وست الأجناس، وست الوزراء ، وست العرب، وست البنين ، وست العيال ، وست الأهل ، وست الخطباء ، وست الكل ، وست البنات ، وست الملوك ، وست الاعداء ، وست من يراها ... الى غير ذلك من الألقاب من باب « الفخر

---

(١٦) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، ورقة ٣٠٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٨ .

(١٧) Wiet, Journal d'un bourgeois, II, pp. 29-30.

والتزكية والثناء والتعظيم » على حد تعبير أحـــد كتاب ذلك العصر[١٨] .

واذا خرجت احـــدى النساء الى الطريق وكان زوجها مقتدرا فانه يحضر لها حمارا يقوده مكارى ويتبعها خادم[١٩] ، الأمر الذى استرعى نظر بعض الرجالة الأجانب الذين زاروا مصر على عصر سلاطين المماليك[٢٠] ، ورغم قلة الاشارات الى النساء وندرتها فى المصادر المعاصرة فاننا نجد كثيرا منها يعبر عن الاحترام والتقدير . فالمقريزى يروى لنا كيف أن السلطان الظاهر بيبرس « نزل من قلعة الجبل بالليل متنكرا وطاف بأنحاء المدينة ليعرف أحوال الناس فرأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعرها سروالها بيده ، ولم يجسر أحد ينـــكر عليه فلما أصبح السلطان قطع أيدى جماعة من نواب الولاة والمقـــدمين والخفراء وأصحاب الرباع بالقاهرة لتهاونهم فى المحافظة على نساء المدينة[٢١] . ويحدثنا أيضا ابن اياس كيف أن السلطان

---

(١٨) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٣٨ ؛ سـعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٣١ .

(١٩) سيرة الظاهر بيبرس ، جـ ٧ ، ص ٢٦ .

(٢٠) Schefer, Voyage magnifique, p. 211.

(٢١) أبو الفضائل ، كتاب النهج السديد ، جـ ١ ، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٧ ، ورقة ٥١٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٤٠ .

الأشرف قايتباى قام بنصرة امرأة رفعت اليه قصة تشكو فيها من بدر الدين بن القرافى أحد نواب قضاة المالكية ، « اذ أمر باحضاره وبطحه وضربه ضربا مؤلما وغرمه فى هذه الحادثة مالا له صورة ، وذلك بعد أن عقد عدة مجالس بينه وبين المرأة التى رافعت فيه »[٢٢] . كما يسجل موقفا مشرفا للسلطان قانصوة الغورى الذى لم يتورع عن ضرب ثلاثة من المماليك ضربا مبرحا حتى أن كادوا يهلكون ورسم بسجنهم بسبب تجرئهم على اختطاف ثلاثة من النسوة وأمر بأن تدفع جامكية أولئك المماليك الى تلك النسوة فى نظير « ما شوشوا عليهن ... فدفعوا لكل امرأة ألفى درهم[٢٣] » .

على أنه من المبالغة أن نصور المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، وقد قدر المرأة على طول الخط وأحلها المكانة اللائقة بها فى المجتمع على أساس أنها شريكة الرجل وساعده الأيمن فى الحياة ، فاذا كنا قد رأينا بعض الاشارات والعبارات التى تدل على تقدير المعاصرين للمرأة ، فان هناك فى المصادر نفسها من الاشارات والعبارات ما يفهم منه أن المرأة ظلت فى

---

(٢٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٦٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٩ ، ص ٢٧ .

(٢٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

نظر البعض « محل الازدراء والاستخفاف[٢٤] » وأداة متعة واستغلال كما يتضح من كتابات أحد المعاصرين الذى لا يستطيع المرء أن يقرأ مؤلفه دون أن تعلو وجهه حمرة الخجل[٢٥] لما جاء به من معلومات لا تليق بتلك التى ســـاهمت بنصيب وافر فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . كذلك من عدم تورع بعض سلاطين المماليك عن ضرب امرأة بين يديه وتشهيرها على حمار فى الطريق العام وفى عنقها زنجير[٢٦] ، بل والأمر بقتلها فى بعض الأحيان[٢٧] . كذلك حدث أن أمر بعض السلاطين بمصادرة بعض النساء والترسيم عليهن بهدف الظفر ببعض مدخراتهن ، مثلما حدث لخوند أصل باى زوجـة الأشرف جان بلاط التى

---

(٢٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٩ ، ورقة ٧ .

(٢٥) راجع كتاب السيوطى ، الايضاح فى علم النكاح ، وكتاب التيجانى تحفة العروس ومتعة النفوس .

(٢٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٦٦٤ ، ٦٩٢ ، ٨٧٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٣٧ ؛ أبو الفضـــائل ، كتاب النهج السـديد ، جـ ١ ، ص ٤٦٨ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ ، ٣٧١ .

(٢٧) أبن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٢ ، ورقة ٢٤ أ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ورقة ١٩٦ أ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٩٩ ، ٨٠٠ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ ؛
Wiet, Histoire mamlouke, II, p. 117
Journal d'un bourgeois, I, p. 196 ; II, p. 201.

وكل بها السلطان طومان باى عشرة من الخدام وقرر عليها نحوا من خمسين ألف دينار فباعت أشياء كثيرة من قماشـها وأخذت فى أسباب وزن ما قرر عليها من المال[٢٨] ، ولزوجـة الأمير تانى بك الخازندار التى صادرها السلطان الغورى وقرر عليها مالا ثقيلا ورسم عليها بجماعة من الطواشية مما اضطرها الى بيع جهازها وجميع ما تملك من صامت وناطق بعد أن هددها السلطان بالقتل غرقا ان لم تورد ما قرر عليها من أموال[٢٩] ، وللست سارة والدة ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم ، الذى قرر عليها السلطان قايتباى مائة وخمسين ألف دينار ، وصمم على ذلك وقرر معها أنها لا تبيع ملكا ولا ضيعة ولا بستانا ، ولم تفلح محاولات أحد من الأمراء ولا غيرهن فى تخفيض هذا المبلغ التى اضطرت أخيرا الى تقسيطه على عدة شهور[٣٠] . كذلك يشير أحد المعاصرين الى ما حدث لرئيسة المغانى هيفة اللذيذة ، التى رافعها بعض أعدائها بأن لها دائرة كبـيرة من المال ، فقبض السلطان الغورى عليها ، وأقامت فى الترسـيم ، وعرضت للضرب غير ما مرة ، وقرر عليها خمسة آلاف دينار ، فباعت الحلى وجميع ما تملكه وأوردت ألف دينار ، وتكلم لها

---

(٢٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٧ .
(٢٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢١ ــ ٢٢ .
(٣٠) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١١٨ .

القاضى بركات موسى بأنها لا تملك غير ذلك ، فقرر عليها بعد ذلك خمسمائة دينار ترد فى كل شهر مائة دينار . مما دفع بهذا الكاتب الى أن يقول : « وقد طفل السلطان نفسه الى مصادرة المغانى أيضا والأمر لله »[٣١] .

وتشير المصادر المملوكية الى أن الجوارى لم تكن أيضا بمعزل عن الأذى والامتهان ، نتيجة لوضعهن الاجتماعى واعتبارهن سلعة لصاحبها مطلق التصرف فيها . ويكفى أن نذكر هنا ما جاء فى قصة مريم الزنارية من قصص ألف ليلة ـ عندما عادت مريم الى أمها بعد غياب طويل ، فسألتها عن حالها وهل مازالت بكر أم لا ، فردت الفتاة على أمها قائلة : « يا أمى بعد أن يباع الانسان .. من تاجر الى تاجر يصير محكوما عليه، فكيف أبقى بنتا بكرا ؟ أن التاجر الذى اشترانى هددنى بالضرب وأكرهنى وأزال بكارتى ثم باعنى لآخر ...[٣٢] » . هـذا ويروى المؤرخون أن السلطان حاجى بن السلطان الأشرف شعبان أكثر من ايذاء جواريه حتى أنه كان اذا ضرب احدى جواريه ، فان ضربه لها يتجاوز الخمسمائة عصا[٣٣] .

---

(٣١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ٢٨٥ .
(٣٢) ألف ليلة وليلة ـ قصة مريم الزنارية ، جـ ٤،ص ١٠٨
(٣٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٥ ، ص ٥٠٥ ؛ الشوكانى ، البدر الطالع ، جـ ١ ص ١٨٧ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٣ ، ص ٨٧ .

بيد أن هذه الاشارات لا تعبر فى رأينا عن الوضـــع الغالب للمرأة ، فضلا عن ضرورة ملاحظة روح العصر ومستواه الفكرى والحضارى ، لأنه من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها كثيرون عند دراسة التاريخ هو أن يحكموا على العصـــور السابقة بعقلية ومنطق العصر الذى يعيشون هم فيه . ويكفى عصر سلاطين المماليك فخرا مارواه المؤرخ ابن حجر العسقلانى من أن بعض القضاة فى القاهرة كان اذا احتكم اليه رجـــل وامرأته فانه كان لا يجبن عن مناصرة المرأة ما دامت صـاحبة حق ، وذلك برغم ما تعرض له ذلك القاضى من أذى على أيدى بعض العامة الذين أدى ضيق أفقهم الى الرغبة فى عدم اعطـاء المرأة حقها المشروع فى الحيـــاة ، مما جعلهم يثورون عليه ويضربونه بالنعال ، بل وينهبون بيته أيضا(٣٤) .

---

(٣٤) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٢ ، ص ٤٢ .

الفصل الثاني

دور المرأة فى الحياة العامة

دور المرأة فى الحياة العامة

رغم القيود الاجتماعية التى فرضتها التقاليد على المرأة فى مصر على عصر سلاطين المماليك . فانها استطاعت المساهمة بنصيب وافر فى الحياة العامة بدليل أن السخارى أحد كتاب ذلك العصر قد أفرد فى كتابه « الضوء اللامع » جزءا كاملا ذكر فيه ما يزيد عن الألف ترجمة لنساء عشن فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، ولمعظمهن نصيب كبير فى الحياة العامة بمصر أثناء تلك الفترة[٣٥] .

وهناك أيضا أدلة واقعية تثبت بما لا يقبل الشك مشاركة المرأة مشاركة فعالة فى الحياتين العلمية والدينية ، اذ يسجل لنا التاريخ أسماء العديدات ممن اشتغلن بالنحو ونظم الشعر[٣٦] من أمثال فاطمة المعروفة بستيتة ابنة القاضى كمال الدين محمود

---

(٣٥) أنظر السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ .

(٣٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٣٩٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٩ .

بن شرين[٣٧] ، ونضار أم العز بنت أثير الدين بن حيان[٣٨] وغيرهما كثيرات . أما من اشتغلن بالفقه والحديث فعددهن لا يحصى ويكفينا أن نشير هنا الى أم زينب فاطمة بنت عباس شيخة رباط البغدادية التى لقبها المقريزى «بسيدة نساء زمانها» وذكر عنها أنها « كانت فقيهة وافرة العلم زاهدة قانعة باليسير ، عابدة واعظة ، حريصة على النفع والتذكير ، وانتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر ، وكان لها قبول زائد ، ووقع فى النفوس[٣٩] » . ودأبت الكثيرات منهن على التنقل بين الشام ومصر شأن فقهاء ذلك العصر للسماع من كبار المحدثين والعلماء[٤٠] . كذلك اشتهر بعضهن فى الحديث بصحيح البخارى فى قلعة الجبل ، الى جانب الفقهاء ، كست الوزراء أم

---

(٣٧) الشوكانى ، البدر الطالع ، جـ ٢ ، ص ٢٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ١٠٧ ؛ كحالة ، أعلام النساء ، جـ ٤ ، ص ١٠٢ .

(٣٨) ابن قاضى شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، جـ ٢ ، ورقة ٢٣٤ ؛ ابن حجر ، الدر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٣٩٥ .

(٣٩) تاريخ ابن الفرات ، جـ ١٤ ، ص ٧٢ ؛ ابن قاضى شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، جـ ٢ ، ورقة ١٢٦ أ ؛ المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ ؛ على مبارك ، الخطط الجديدة ، جـ ٦ ، ص ٥٣ .

(٤٠) العينى ، عقد الجمان ، حوادث سنة ١٣١٦/٧١٦ ؛ ابن قاضى شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، جـ ٢ ، ورقة ٣٠٧ .

محمد ابنة عمر بن أسعد ، التى حدثت بصحيح البخارى فى القاهرة ومصر وقلعة الجبل على حد قول أحد مؤرخى هذا العصر سنة ٧٠٥ / ١٣٠٥[٤١] .

وتشير المصادر المملوكية وكتب التراجم أن كثيرا من كبار فقهاء عصر المماليك سمعوا من بعض المسندات الشهيرات اللائى أجزن لهم[٤٢] ، ولم يجد هؤلاء الفقهاء غضاضة ـ مع عظم مكانتهم ـ من الاعتراف والنص صراحة على ذلك ، بل على العكس نجدهم يفتخرون بأنهم سمعوا عن فلانة وفلانة من المحدثات وأن بعضهن أجزن لهم فابن حجر أحد علماء القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، يذكر فى كتابه « انباء الغمر » أنه حصل على أجازتين الأولى من شمس بنت ناصر الدين محمد ، والثانية من خديجة بنت العماد الصالحية[٤٣] . والسخاوى يصف كيف تزاحم طلبة العلم فى عصره على أنس ابنة عبد الكريم ، ويفخر بأنه ممن أخذوا عنها . كذلك يذكر هذا العالم أسماء كثيرات ممن أجزن له مثل آمنة ابنة الشمس المتوفاة ٨٦٧ / ١٤٦٣ ؛ وأمة الخالق ابنة

---

(٤١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ .

(٤٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٢ ، ص ١١٩ ؛ ابن قاضى شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، جـ ٢ ، ورقة ٩٢ .

(٤٣) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٦ ، ورقة ٥٥٥ .

الزين عبد اللطيف المتوفاة سنة ٨٣٣ / ١٤٣٠ ، ورجب ابنة الشهاب أحمد المتوفاة سنة ٨٦٩ / ١٤٦٥ ، وأم هانىء ابنة التقى محمد المتوفاة سنة ٨٨٥/١٤٨٠ التى يصفها بأنها « كانت مباركة دينة كثيرة التودد والموافاة » وغيرهن من المسندات والواعظات ممن تعلم على أيديهن ونهل منهن[٤٤] .

ويصف مؤرخو هذا العصر ، مدى اقبال عامة نساء عصر المماليك ، على مجالس العلم والدين ، اذ حرصت كثيرات منهن على الذهاب الى المجالس العلمية والدينية ، حيث كن يجلسن ــ على حد قول الكاتب المغربى ابن الحاج ــ فى مكان منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية[٤٥] ، كما نجد فى مصادر تلك الفترة اشارات الى بعض الفقهاء والوعاظ الذين خصوا النساء دون الرجال بعلمهم مثل الفقيه العلامة أبو العباس أحمد[٤٦] ، وحجتهم فى ذلك كما جاء على لسان الشعرانى ، أن النساء لا يعلمهن أحد من أزواجهن شيئا ، ولذلك يجب اعطائهن عناية خاصة حتى يعرفن أحكام الدين وما عليهن من حقوق الزوجية

---

(٤٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٥ ، ٦ ، ٩ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤٤ .

(٤٥) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ .

(٤٦) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٢ ، ص ١١١ .

والجيران[٤٧] . كذلك وجد الى جانب هؤلاء الوعاظ من الرجال فئة كبيرة من الواعظات اللائى تخصصن فى وعظ النساء وتعليمهن وتحفيظهن القرآن ، نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر أسماء بنت الفخر ابراهيم وحنيفة بنت المحدث وعائشة بنت ابراهيم وفاطمة بنت عباس شيخة رباط البغدادية[٤٨] .

وسلكت بعض النساء فى عصر المماليك طريق التصوف ، فلبسن الخرق كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلق عليهن ـ حسب رواية ابن حجر ـ اسم الشيخات أو الفقيرات[٤٩] ، وكان غالبيتهن من بين الأرامل والمطلقات اللاتى أقمن فى الأربطة والخانقاوات لما اشتهرت به من شدة الضبط ، وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات[٥٠] ، تحت رئاسة شيخاتهن ، اللائى حرصن على الباس الصوف لمن تتوب على يدهن وادخالها فى طريقتهن مثلما يفعل مشايخ الصوفية من الرجال . وقد حمل

---

(٤٧) الشعرانى ، طبقات ، جـ ٢ ، ص ١١١ .

(٤٨) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ ؛ جـ ٢ ، ص ٢١٣؛ جـ ٣ ، ص ٢٢٦ .

(٤٩) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٢ ، ورقة ٨٤١ .

(٥٠) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .

الكاتب المغــربي ابن الحاج عليهن حملة شــعواء وشــبههن بالمسيحيات فى الأديرة ، كما عاب على المتصوفات فى عصره رفع أصواتهن بالذكر ، وقال أن العجيب فى هؤلاء الشيخات أنهن لا يمضين الى موضع لعمل الذكر فيه الا بعد دفع الرسم المقرر لضامنة المغانى(٥١) . شأنهن فى ذلك شأن بقية غوانى العصر المملوكى .

على أنه من الخطأ الواضح الاعتقاد بأن طريق التصــوف ولبس الخرقة كان قاصرا على نساء الشعب وعامة الناس ، اذ تشير المصادر المملوكية الى بعض زوجات السلاطين ممن سلكن هذا الطريق مثل خوند شكر باى ، زوجة السلطان الظــاهر خشقدم،التى وصفتها المصادر المعاصرة بأنها « كانت دينة خيرة، تميل الى طريقة الفقراء ، ولبست خرقة الأحمدية »(٥٢) . وكان لها اعتقاد كبير فى الشيخ أحمد البدوى وتوجهت اليه وزارته بعد سلطنة زوجها غير مرة كما جاء فى النجــوم الزاهرة لابن تغرى بردى وفى غيره من المصادر الأخرى(٥٣) ، وعند وفاتها أنزلت من القلعة وعلى نعشها خرقة مرقعة للفقراء ولم يغط

---

(٥١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٥٢) محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص ١٥٩ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٣٩ .

(٥٣) ابن تغرى بردى ، حوادث ، ص ٧٥٨ ؛ النجــوم ، جـ ٧ ، ص ٧٠٧ ــ ٧١٥ .

نعشها ببشخاناه على عادة الخواندات ، وجعل أمام نعشها أعلام حمر أحمدية ، وكان ذلك بوصية منها[٥٤] .

ولم يقتصر نصيب المرأة فى الحياة العامة على الاشتغال بالفقه والحديث وغيرهما من العلوم الدينية ، بل شاركت أيضا مشاركة فعالة فى كل ما يتعلق بالحياة اليومية ساعية الى كسب قوت يومها جنبا الى جانب الرجل . ويشير مؤرخو تلك الفترة الى العديد من النساء ممن قمن بدور الخاطبة[٥٥] ، التى لعبت دورا هاما فى أغلب مشاريع الزواج على عصر سلاطين المماليك ، اذ أنها كانت تعرف على حد قول ابن دنيال الموصلى « كل حرة وعاهرة وكل مليحة بمصر والقاهرة »[٥٦] ، كما يشيرون أيضا الى البلانات اللاتى كن يقمن بتحفيف النساء فى الحمامات العامة[٥٧] ، والى المراضع والدادات اللائى كن يشرفن على تربية أولاد وبنات السلاطين والامراء فى الأدر الشريفة[٥٨] وفى

---

(٥٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٨٠٩ ؛ على السخاوى ، تاريخ مصر ، ورقة ٢٤٢ أ .

(٥٥) عن دور الخاطبة فى العصر المملوكى أنظر بحثنا عن : La Femme, pp. 59

(٥٦) ابن دنيال ، طيف الخيال ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٥٧) أنظر

Ahmad Abd ar-Räziq, La Femme, pp. 44-45

(٥٨) ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٢ .

بيوت أهل اليسر والثراء من طبقة التجار وكبار العلماء كما يفهم من قصص ألف ليلة وليلة(٥٩) . وتتحدث المصادر أيضا عن الماشطة ، التى كانت تقوم بتجميل النساء فى الحمامات العامة ، وتغير الفقيرات منهن الثيــاب والحلى فى مناسـبات الزواج والزفاف(٦٠) . وعن الصـانعة ، التى كانت تقـوم بوشـم النســاء(٦١) ، واعتــادت أن تجوب طرقات المدينـة « حاملة المشارط والكاسات وقد تأبطت المخلاة وأظهرت حول جيدها الطوق والشنوف المحلاة ، وغرزت عصابتها بكلاليب الابر»(٦٢) التى كانت تستخدمها فى عملية الوشم ، وقد اشترط الفقهاء أن تكون هذه الصانعة من بين المسلمات ومن غير الشابات ، اللاتى يمشين مكشوفات الوجوه ، متبرجات ، خشية أن تكتسب المرأة شيئا من خصالهن وأحوالهن المذمومة شرعا(٦٣) .

---

(٥٩) Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, p. 152

(٦٠) أبو الفضائل ، كتاب النهج السديد ، جـ ١ ، ص ٤٦٧ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٧ ، ورقة ٥٠٩ ، النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٤ ، ورقة ٢٥ ب .

(٦١) Kahle, A Gypsy Woman, Journal of the Gypsy, XXIX, p. 14

(٦٢) عبد الحميد يونس ، خيال الظل ، ص ٧٥ .

(٦٣) ابن الحــاج ، المدخل ، جـ ٤ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ؛ البخارى ، جـ ٤ ، ص ١٣١ ؛ المقدسى ، بذل النصائح ، ورقة ٨٤ أ ؛ التركمانى ، اللمع ، ورقة ١٣٦ ب ؛ الشعرانى ، لواقح الانوار ، جـ ٢ ، ص ٢١١ .

ومن الوظائف التى كانت قاصرة على نساء عصر سلاطين المماليك نذكر الدايات[٦٤] اللاتى كن يحضرن قبل الوقت المنتظر للولادة بيومين أو ثلاثة أيام ، الى منزل السيدة المحتاجة الى المساعدة كرسى الولادة ، الذى لا نزال نرى أحد نماذجه محفوظا فى متحف بيت الكريدلية بالقاهرة ــ وهو ذو شكل خاص تجلس عليه المرأة أثناء عملية الولادة ، وكان يغطى بشال أو منشفة مطرزة ، ويزين ببعض الزهور والورود ويوضع أمام منزل الحامل اعلانا عن قرب وصول مولدها[٦٥] .

وجدت أيضا البغايا اللائى كن يسمين بنات الخطأ والخواطىء[٦٦] ، وقد كثر عددهن فى الديار المصرية على عصر سلاطين المماليك ، وكان لهن لباس خاص يعرفن به ، وهو لبس الملاءات والطرح وفى أرجلهن سرافيل من أديم أحمر[٦٧] . وقد

---

(٦٤) عن الداية أنظر بحثنا عن La Femme, pp. 62-63

(٦٥) Lane, The Modern Egyptians, p. 509

(٦٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، جـ ٢ ، ص ٤١ ؛ محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص ٩ ؛ الجوهرى ، انباء الهصر ، ورقة ١٤٥ أ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٢ ، ص ٧٤ ؛ عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، جـ ١ ، ص ١١٧ ؛ زكى مبارك ، التصوف ، جـ ١ ، ص ٣٨١ .

(٦٧) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ص ٩٦ .

اعترفت الدولة بهن وفرضت عليهن ضرائب مقررة ، وجمعت من هذه الضرائب على حد زعم المؤرخ ابن تغرى بردى « جملة مستكثرة »[٦٨] . كما جعلت الدولة المملوكية للبغايا ضامنة عرفت باسم ضامنة المغانى ، تذهب اليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها عندها . وكانت هذه الضامنة تتعهد بدفع مال الى الدولة فى مقابل أن تتولى جمع ضريبة المغانى ، التى كانت تجمعها من النساء البغايا فى مقابل أن تحميهن الدولة[٦٩] . وهكذا انتشر البغاء فى مصر المملوكية ، حتى وقفت البغايا بالأسواق تحت أعين المارة[٧٠] . ولم يقتصر ذلك على القاهرة والمدن الكبرى بل عم بلاد الصعيد والوجه البحرى حيث خصص للبغايا حارات مريبة معينة[٧١] ، كأرض الطبالة[٧٢] ، وربع الزينى[٧٣] ،

---

(٦٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٤٧ .

(٦٩) عن ضامنة المغانى ، أنظر بحثنا عن :
La Femme, pp. 79-80
؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، جـ ٢ ص ٧٢٨ .

(٧٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ورقة ٣١٢ .

(٧١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٦٦ ؛ ابن قاضى شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، جـ ٢ ، ورقة ٢٣٥ ؛ ابن حجر ، انباء الغمر جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٧٢) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ ؛ السلوك جـ ٢ ، ص ٧٦٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٥ : ص ١٢ ؛ جـ ٧ ، ص ٣٨٩ .

(٧٣) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٧٨ .

وجزيرة حليمة ما بين بولاق والجزيرة الوسطى التى سمتها العامة بحليمة ونصبوا فيها عدة أخصاص بلغ مصروف الواحد منها ثلاثة آلاف درهم نقرة(٧٤) . وقد حاول السلطان الظاهر بيبرس أن يحد من البغاء فى البلاد ، فأبطل المكوس المقررة على البغايا ، ومنع البغاء فى القاهرة وسائر البلاد(٧٥) ، كما أمر بحبس البغايا حتى يتزوجن ، وأمر ألا يزاد فى مهورهن عن أربعمائة درهم يعجل منها مئتان رغبة منه فى تيسير زواجهن(٧٦) . ويشير المقريزى أيضا أنه كان من جملة الضرائب التى ألغاها السلطان الناصر محمد بن قلاوون عقب الروك الناصرى ، ضريبة حقوق القينات وهى ما يجمع من « الفواحش والمنكرات » ، والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات والفنادق لعمل الفاحشة(٧٧) .

---

(٧٤) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ ؛ السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٠٣ .

(٧٥) السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٥٤ ؛ ابن عبد الظاهر ، سيرة الظاهر ، جـ ٣ ، ص ١١٦٠ ، مرعى بن يوسف ، نزهة الناظرين ، ورقة ٦٨ أ .

(٧٦) تاريخ ابن الفرات ، جـ ١٣ ، ص ٤٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٧٨ .

(٧٧) السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢١٨ ؛ المقريزى ، خطط ، جـ ١ ، ص ١٤٤ .

والحديث عن نشاط المرأة ووظائفها فى مصر على عصر سلاطين المماليك يحتم علينا الاشارة الى تلك الطبقة من النساء ممن اشتغلن بفن الموسيقى والغناء ، اذ اهتم الناس فى هـذا العصر اهتماما كبيرا بأنواع الموسيقى والغناء ، وعمل السلاطين على تشجيع المغنيين والمغنيات ويصف المؤرخ ابن تغرى بردى أحد علماء الأزهر فى ذلك العصر بأنه اشتهر بالتقشف والبعد عن زخرف الدنيا ، ولكن مع ميل « الى سماع المغانى والرقص واللهو »(٧٨) . كذلك روى الأدفوى فى كتابه الطالع السعيد ، عن أحد الفقهاء أنه سمع بمغنية شهيرة تغنى فى مكان معين ، فترك شيخه بعد الصلاة وتسلل خفية لسماعها ، فلما عرف شيخه سبب غيابه قال له عند عودته «أمرها عندى خفيف»(٧٩) . لذلك لا عجب اذا وجدنا أدباء عصر المماليك وشعراءه يكثرون من ذكر المغنيات فى شعرهم كقول صفى الدين حجا بن آلحمد وقد أستأذنت عليه مغنية فى الدخول .

أدخلى تدخلى علينا سـرورا
أنت والله نزهة العشـاق

---

(٧٨) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٦ ، ص ١٣٦ .

(٧٩) الأدفوى ، الطالع السعيد ، ص ٣٢٦ .

لا تميلى الى الخـروج سريعـا
تخرجى عن مكارم الأخـلاق

كذلك ترددت فى ذلك العصر أسماء الكثيرات من المغنيات، يصحبها اشـارات تدل على عظم مـكانتهن فى المجتمع، مثل خديجة الرحابية المتوفاة سنة ١٤٨٢/٨٨٧ ، التى كانت على حد رواية ابن اياس « من أعيان مصر ولها أنشاد لطيف وحظيت عند أرباب الدولة ورؤساء مصر ، وكانت جميلة الشكل حسنة الغناء ، فأفتن بها الكثير من الناس » حتى قال فيها بعض الشعراء

رحابية تخفى الشـموس جمالها
لهـا حسن انشـاد تزين مقالها
وقد خايلت بالبـدر ليـلة تمسه
فمازال من عينى وقلبى خيالها(٨٠)

ومن مغنيات عصر المماليك نذكر أيضا خوبى العوادة التى ذكر عنها ابن حجر العسقلانى ، أنه لم يدخل مصر مثلها فى الغناء

---

(٨٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور جـ ٢ ، ص ٢٠٧ .

وضرب العود[٨١] ، والريسة خديجة أم خوخة المتوفاة سـنة ١٥١٢/٩١٨ ، التى كانت من أعيان مغانى الدكة ، ولها فى هذا الفن اليد الطولى والريسة بدرية بنت جريعة ، وكانت من أعيان المغانى أيضا ، ولها شهرة بينهن واسعة[٨٢] وضبيفة الحموية التى أنشدت فى السلطان الناصر محمد بن قلاوون قائلة :

ولقد نذرت بان رأيتك ســالما
ونظرت وجهك أن أصوم شهورا

حذرا عليك من الزمان وغـدره
حتى تعـود مؤيدا منصـورا[٨٣]

بقى أن نشير الى عزيزة بنت السطحى ، التى كانت أيضا من أعيان مغـانى مصر ، فريدة عصرها فى النشـيد مع حسن الصوت وفصاحة باعراب الشعر ، فلم يخلفها من بعدها أحـد من النساء المغانى ، ورأت على حد قول المؤرخ ابن اياس ، من الأعيان وأرباب الدولة غاية العز والعظمة مالا رآه غيرها من

---

(٨١) ابن حجر ، الدر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٤٥٨ ، جـ ٢ ، ص ٩٥؛ الصفدى ، أعيان العصر ، ورقة ٣ ب ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ورقة ٧٤ أ ؛ اقبغا الخاصكى ، التحفة ، ورقة ٤٣ ب ؛ كحالة أعلام النساء ، جـ ١ ، ص ٣٧٣ .

(٨٢) Wiet, Journal d'un bourgeois, I, p. 241.

(٨٣) ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٩ ، ص ١٤٧ .

أرباب الفن ... وكان لها بمصر شهرة زائدة وقال فيها الشهاب المنصورى أحد شعراء هذا العصر :

وفتـــاة نزهت طرفى فيهـــا
شـــغفت مسمعى بجـــوهر فيها

منـــذ زارت محبهـــا وتغنت
كاد يرمى بنفســـه من أبيها(٨٤)

أما عن نشـــاط النساء فى شـــوارع المدينـــة وأسواقها ومتنزهاتها فـــكان عظيما فى العصر المملوكى . فقد ذكر أحـــد المعاصرين أن مجالس الخلاعة بالقاهرة زخرت بالنساء الى جانب الرجال(٨٥) بالاضافة الى ذلك فان الرحالة الأجانب الذين زاروا القاهرة فى عصر سلاطين المماليك مثل سانوتو وغيره ، لاحظوا أن المرأة تتمتع بحـــرية كبيرة فى شوارع القاهرة وأســـواقها ومتنزهاتها ، حتى أن بعضهن يتغيبن عن منازلهن فى أوقات كثيرة من النهار ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن(٨٦) . ويذكر

---

(٨٤) Wiet, Journal d'un bourgeois, I, p. 6.

(٨٥) الجوبرى ، المختار فى كشف الأسرار ، ص ٣٥ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ص ١٣٩ .

(٨٦) Schefer, Le Voyage d'Outremer, p. 33.

الفقيه المغربى ابن الحاج أن النساء فى عصره يباشرن معظم أمور الشراء من الأسواق « بل الغالب أن المرأة تشترى لزوجها ما يحتاج اليه فى لبسه لنفسه »(٨٧) . ولعل فى هذا سبب مراعاة محتسب القاهرة لسيرة وأمانة أهل الأسواق الذين اختصوا بمعاملة النساء ، فاذا تحققهما منهم أقرهم ، وان ظهرت من بعضهم الريبة وبان على أحدهم الفجور ، منعه من معاملتهن وأنهاه عن التعرض لهن(٨٨) .

واذا لم يكن للنساء حاجة من الأسواق فانهن يذهبن الى الحمامات العامة حيث يأنسن ببعض . وقد عدد القريزى حمامات القاهرة ومصر على أيامه فذكر أن بعضها خاص بالرجال وبعضها خاص بالنساء ، وبعضها يفتح للرجال قبل الظهر وللنساء بعد ذلك(٨٩) وفى الحمام اعتادت أن تجتمع النساء والصديقات فيتناقلن أخبار الناس ويقصصن على بعضهن كثيرا من أخبارهن وحياتهن المنزلية(٩٠) . والى الحمام تتجه المرأة التى

---

(٨٧) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٥٥ .

(٨٨) المقدسى ، بذل النصائح الشرعية ، ورقة ٥٩ ب .

(٨٩) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٧٩ ــ ٨٥ .

(٩٠) Pauty, Les hammams du Caire, p. 4
سيرة الظاهر بيبرس ، جـ ١ ، ص ٦٦ .

لا يراها النـــاس الا محجبة ، فتكشف عن عورتها للبـــلانة « والنساء فى هذا المقام أشد تهالكا من الرجال ! »[٩١] وتكون المرأة فى هذه الحالة قد استصحبت معها أفخر ثيابها وأنفس حليها لتلبسها بعد الاستحمام حتى يراها غيرها « فتقع المفاخرة والمباهاة »[٩٢] . كذلك لا عجب اذا أكثر أدباء عصر المماليك وشعراؤه من وصف الحبيب فى الحمام[٩٣] .

وكثيرا ما خرجت النساء الى البرك وشاطىء النيل وغيرها من أماكن اللهو والفرجة ، حيث ينكشف ستر الحياء ويختلط النساء بالرجال ، الأمر الذى أثار الفقهاء ورجال الدين فنادوا بمنع النساء من الخروج على ذلك الوجه السافر[٩٤] . ولذلك حاول بعض السلاطين منع النساء من الخروج الى الطرقات والى أماكن النزهة مثلما حدث عام ٨٢٥/١٤٢٢ عندما منـــع صدر الدين أحمد بن العجمى المحتسب ، النساء من الجلوس على حوانيت الباعة للفرجة على المحمل وتشدد فى ذلك وكانت

---

(٩١) ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص ١٥٧ .

(٩٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٣ ، ص ١٧٣ .

(٩٣) ابن حبيب ، درة الأســلاك ، جـ ١ ، ص ٢٣٠ ؛ ابن دنيال ، طيف الخيال ، ص ١١٨ .

(٩٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ ــ ٢٧٥ ؛ جـ ٢ ، ص ٣٣١ .

العادة أن تجلس النساء صدرا من النهار ويبتن بالحوانيت حتى ينظرن المحمل من الغد فيختلطن بالرجال فى مدة يومين وليلة فتقع أمور غير مرضية[٩٥] . وكما حدث عام ١٤٣٧/٨٤١ عندما نودى بالقاهرة ومصر وظواهرها بمنع جميع النساء بأسرهن من الخروج من بيوتهن ، وأن لا تمر امرأة فى شارع ولا سوق البتة ، وتهدد من خرجت من بيتها بالقتل ، فامتنع عامة النساء ، فتياتهن وعجائزهن وأمائهن عن الخروج الى الطرقات وأخذ والى القاهرة وبعض الحجاب فى تتبع الطرقات ، وضرب من وجدوا من النساء ... وتشددوا فى الردع والتهديد فلم تر امرأة فى شيء من الطرقات . فنزل بعدة من الأرامل وربات الصنائع ، ومن لاقيم لها يقوم بشأنها ، ومن تطوف على الأبواب تسأل الناس ، ضيق وضرر شديد ومع ذلك فتعطل بيع كثير من البضائع والثياب والعطر فازداد الناس وقوف حال ، وكساد معايش ، وتعطل أسواق وقلة مكاسب ولكن المنع لم يستمر الا زمنا محدودا سمح بعدها بخروج الاماء لشراء حوائج مواليهن من الأسواق ، بشرط أن لا تتنقب واحدة منهن ، بل يكن سافرات عن وجوههن . وأن تخرج العجائز لقضاء أشغالهن ، وأن تخرج النساء الى الحمامات ولا يقمن بها الى

---

(٩٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٦١٤ .

الليل ، فكان ذلك ، على حد قول المقريزى ، نوع من أنواع الفرج[٩٦] .

كذلك اعتادت نساء مصر الخروج الى المقابر والقرافات فى الليالى المقمرة وليالى المواسم والأعياد وليالى الجمع من كل أسبوع ومعهم الريحان والزهور كالياسمين وغيره[٩٧] . وهناك يدعـون الأهل والأصـدقاء ويقمن الولائم ومعهن أولادهن وأزواجهن[٩٨] ، فيكثر الغناء والرقص ويحدث الفساد باختلاط النساء بالرجال[٩٩] لذلك تشددت الدولة فى بعض الأحيان فى خروج النسوة الى المقابر[١٠٠] ، اذ يذكر ابن الفرات فى تاريخه، أن نائب السلطنة كتبغا المنصورى تقدم عام ٦٧٩/١٢٨١ بأن لا يجتمع الرجال والنسـاء فى ليالى الجمـع بالقرافتين[١٠١] ونقرأ أيضا عن تسـلط الأمير علاء الدين الطبرسى والى باب

---

(٩٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ١٠٣٢ — ١٠٣٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٦ ، ص ٧٦٠ ؛ على السخاوى ، تاريخ مصر ، ورقة ١١ أ .

(٩٧) Schefer, Le Voyage d'Outremer, p. 51.

(٩٨) رحلة ابن بطوطة ، جـ ١ ، ص ٧٤ .

(٩٩) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٤٤٣ .

(١٠٠) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ١٧ — ٢٣ .

(١٠١) تاريخ ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ١٩٦ .

القلعة ، على النساء ومنعهن من الخروج الى الأسواق وغيرها ، وكان يخرج أيام المواسم الى القرافة وينكل بهن فامتنعن من الخروج فى زمانه الا لأمر هام مثل الحمام وغيره [١٠٢] . وفى عام ٨٢٤/١٤٢١ نودى بمنع النساء من الخروج الى الترب وتشدد الأمير جقمق الحاجب فى ذلك ، وكان قد كثر فى شهر ذى القعدة مرض الناس ومات عدة منهم فصارت النساء يترددن الى الترب أيام الجمع ويقمن بها المأتم والعزاء [١٠٣] ويسجل لنا أيضا المؤرخ ابن حجر العسقلانى منعا آخر عندما يشير الى أنه نودى عام ٨٣٣/١٤٣٠ بمنع النساء من الخروج الى الترب « وتوعد المكارى الشنق والمرأة بالتعزير [١٠٤] » . بيد أن هذا المنع لم يستمر طويلا وعاد بعده الحال الى ما كان عليه من قبل بدليل اشارة نفس المؤرخ الى نداء رابع بمنع النساء من الخروج الى الترب أيام الجمع سنة ٨٣٥/١٤٣٢ [١٠٥] وباستمرار هذا الحال قدر شهر عادت بعده النساء الى الخروج الى القرافات وغيرها من أماكن اللهو والفرجة [١٠٦] .

---

(١٠٢) المقريزى ، السلوك جـ ٢ ، ص ٥١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٢٣٠ .

(١٠٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٥٦٦ .

(١٠٤) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٣ ، ص ٤٣٩ .

(١٠٥) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٣ ، ص ٤٧٠ .

(١٠٦) Ahmad Abd ar-Rāziq, La Femme, p. 40.

الفصل الثالث

سلطان المرأة ونفوذها

سلطان المرأة ونفوذها

كان للمرأة نفوذها وسلطانها على عصر سلاطين المماليك الى حد يسترعى الانتباه فهناك أدلة واقعية كثيرة تثبت تدخل نساء السلاطين والأمراء فى شئون الحكم ومشاركتهن فى توجيه سياسة الدولة • وأول هذه الأمثلة شجر الدر التى وصفها المؤرخون بأنها كانت « صعبة الخلق قوية البأس[١٠٧] » ، اذ استطاعت أن تنقذ البلاد وتدير شئونها فى فترة عصيبة من أحرج فترات التاريخ المصرى ، فضلا عن أنها تولت عرش الديار المصرية وقضت فيه ثمانين يوما[١٠٨] برهنت خلالها على كياسة عظيمة وذكاء وافر[١٠٩] • كذلك نسمع عن أم السلطان السعيد

---

(١٠٧) الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج ٢٠ ، ورقة ١٣٩ أ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٩١ .

(١٠٨) العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٣٨٩ .

(١٠٩) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٦٢ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ورقة ١٦٤ ب ؛ العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٣٨٩ ؛ سعيد عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ١٤ — ٢٢ .

بركة خان التى كانت تتمتع أيضا بنفوذ عظيم ليس فقط على ابنها ولكن أيضا على أمراء الدولة بدليل أنه عندما شب الخلاف سنة ٦٧٦ / ١٢٧٧ بين الملك السعيد وأمرائه لم يجد خيرا من أمه ليبعث بها للتفاوض مع الأمراء ، فى الصلح ، فأظهروا لها كل احترام واشترطوا عليها شروطا كثيرة ، التزمت لهم بها وعادت الى ولدها لتخبره نتيجة وساطتها[١١٠] .

وتتحدث المصادر أيضا عن خوند أشلون أم السلطان الناصر محمد بن قلاوون التى لعبت دورا مماثلا عندما صعدت سنة ٦٩٣ / ١٢٩٤ الى أعلى سور القلعة بعد أن طال حصار الأمراء لها وتحدثت اليهم فى أسباب ذلك الحصار ، وناقشت معهم أهم مطالب رجال الدولة بعد أن أكدوا لها أن « مالهم غرض الا مسك الأمير سنجر الشجاعى واخماد الفتنة[١١١] »

---

(١١٠) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، جـ ٩ ، ورقة ٨٩ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٩٦ ، ١٤٢ ؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٩٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٤٥ ؛ المقفى ، ورقة ١٧٤ ب ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٤ ، ورقة ٩٦ أ ؛ الجعفرى ، بهجة السالك ، ورقة ٦٤ ب ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١١٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٣ ، ص ٢٨٨ .

(١١١) ابن شاكر ، عيون التواريخ ، جـ ٢١ ، ورقة ٥١ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٤٥ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٨٩ .

ويصف المؤرخ ابن اياس خوند زينب احدى زوجات السلطان الأشرف أينال أنها « كانت من أجل الخوندات قدرا ورأت فى دولة زوجها الأشرف اينال غاية الغز والعظمة حتى صارت تدبر أمور المملكة من ولاية وعزل ، وكانت نافذة الكلمة وافرة الحرمة فى سعة من المال ••• وكانت اذا دخلت على السلطان الأشرف قايتباى يقوم لها ويعظمها[١١٢] » ، كما وصفها ابن تغرى بردى بأنها « صار لها نصيب وافر مع السلطان فى كل هدية ورشوة[١١٣] » أما السخاوى فأشار « الى طواعية السلطان جدا لأوامرها حتى كان لا اختيار له معها[١١٤] » •
ومثل هذه الأوصاف نجد لها أشباها كثيرة لبعض نساء المماليك كخوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان ، الذى كان لايصدر أى أمر من الأمور الا بعد مشاورتها ومراجعتها ، بل لم يكن بمقدوره مخالفتها[١١٥] ، وأم السلطان الصالح اسماعيل التى

---

(١١٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ •

(١١٣) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٢٩ ؛ نزهة الانسان ، ورقة ١٧٤ •

(١١٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٥٤ •

(١١٥) ابن الشحنة ، الذيل من كتاب المنهل ، جـ ٣ ، ورقة ٧ ب ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٤١ •

تمتعت بنفوذ وافر وحرمة زائدة[١١٦] ، وخوند جلبان زوجة السلطان الأشرف برسباى التى « عظمت حرمتها فى الدولة وقصدها الناس لقضاء حوائجهم ... وكانت من عظماء النساء ولو عاشت حتى تسلطن ولدها العزيز يوسف ، لكانت دبرت ملكه أحسن تدبير[١١٧] » .

ولدينا معلومات وفيرة عن تدخل نساء السلاطين للاصلاح بينهم وبين أمرائهم . فيروى المقريزى أن السلطان الكامل شعبان قصد فى سنة ٧٤٧ / ١٣٤٦ أخذ أموال الطواشى كافور الهندى ، فشفعت فيه خوند طغاى أرملة السلطان الناصر محمد ابن قلاون فاكتفى السلطان باخراجه الى القدس[١١٨] . أما السخاوى فيصف لنا كيف أن السلطان الظاهر خشقدم قد رسم بنفى اللالا خشقدم الرومى الى المدينة النبوية ، غير أن خوند شكر باى زوجة السلطان رفضت الموافقة على ذلك ، مما اضطر السلطان فى النهاية الى التراجع فى قراره هذا[١١٩] .

---

(١١٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٦٢٥ ـ ٦٣١ .

(١١٧) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ورقة ٦ ب ؛ النجوم ، جـ ٦ ، ص ٨٤٢ .

(١١٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٠٦ .

(١١٩) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٣ ، ص ١٧٦ .

وكثيرا ما نقرأ أيضا فى الكتب المعاصرة أن زوجة أحد السلاطين كانت وراء حصول بعض الأمراء على ما يرغبون من سلطة ونفوذ[١٢٠] ، اذ جاء فى ترجمة كافور الصيرغتمشى الزمام « أنه خدم عند السلطان الظاهر برقوق بواسطة زوجة السلطان ، خوند هاجر بنت منكلى بغا الشمسى[١٢١] » .
ونسمع أيضا عن العديد من الأمراء الذين شغلوا بعض الوظائف الهامة فى البلاط المملوكى بسفارة خوند مغل زوجة السلطان الظاهر جقمق مثل أحمد بن محمد العطار الذى ظفر بوظيفة الدوادارية[١٢٢] ، وجوهر القنقباى الذى أضيفت اليه وظيفة الزمام[١٢٣] ، وسودن المحمدى الذى دام خاصكيا دهرا طويلا لا يلتفت اليه الى أن أمره الملك الظاهر جقمق لكون زوجته أخت خوند مغل زوجة السلطان ، ثم جعله السلطان من جملة رؤس النواب[١٢٤] » .

ويبدو أنه عندما أدرك المعاصرون سلطة النساء ونفوذهم

---

(١٢٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١١٦ .
(١٢١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ورقة ٣٨ ب ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٦ ، ص ٢٢٦ .
(١٢٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٨٣ .
(١٢٣) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٨٣ .
(١٢٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٣ ، ص ٢٨٦ .

صاروا يوسطوهن لقضاء حوائجهم فقد حكى السخاوى عن العلم البلقينى أنه توصل الى منصبه عن طريق زوجته خديجة « لمزيد اختصاصها بخوند العظمى » زوجة السلطان الأشرف اينال[١٢٥] » • فاذا تعذر على تاجر قضاء مطلب عند أهل الدولة بحث عن الطريق الذى يوصل به شكواه الى حريم السلطان وعندئذ تقضى حاجته فورا[١٢٦] •

وتتحدث المصادر المملوكية أيضا عن أولئك الذين نجحوا فى احتلال بعض المناصب الهامة فى الدولة المملوكية بفضل زواجهم باحدى بنات السلاطين أو باحدى قريباتهم ، اذ جاء فى كتاب الدرر الكامنة لابن حجر أن الأمير برلغى الأشرفى تضاعفت حرمته فى البلاط السلطانى بعد زواجه من بنت السلطان بيبرس الجاشنكير[١٢٧] ، كما يذكر أيضا فى معرض حديثه عن الأمير أقبغا من عبد الواحد ، أنه تقدم عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون بفضل زواج السلطان المذكور من أخته خوند طغاى[١٢٨] • ويحكى المؤرخ ابن تغرى بردى أن الأمير الجاى اليوسفى قد عظمت حرمته فى

---

(١٢٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٢٥ .

(١٢٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤١٢ .

(١٢٧) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٤٧٦ .

(١٢٨) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ص ٣٩١ .

الدولة بزواجه من خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان[١٢٩]، وأن الأمير اينال الظاهرى صـارت له كلمة نافذة فى الدولة، لزواجه بخوند بيرم أخت السلطان فرج بن برقوق[١٣٠].

على أنه من الخطأ البين أن نعتقد أن نفوذ المرأة وسلطانها كان وقفا على طبقة الخوندات وزوجات السلاطين، اذ كثيرا ما نسمع أن جارية أحد السلاطين أو محظيته قد تسببت فى رفع الظلم عن أحد التجار. كما يحدثنا المقريزى فى وقائع سـنة ١٣٣٦/٧٣٧، عن كيفية تطـرف بعض الولاة فى مصـادرة التجار وانزال المظالم بهم فقام عدة من الأمراء الأكابر ليشفعوا للتجار ولكن السلطان لم يسـمع لأحـد منهم قولا حتى اذا قامت ست حـدق دادة السلطان الناصر محمـد بن قلاوون ومربيته فى رفع الظلم عن التجـار، عندئذ اسـتمع السلطان لرجائها ونفذ رغبتها فورا[١٣١]. ويذكر أيضا فى معرض حديثه عن السلطان الكامل شعبان أن الأمراء أخـذوا على السلطان

---

(١٢٩) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ ٢ ورقة ٨ ب، ٧١ ب؛ النجوم، جـ ٩، ص ٥٨؛ ابن خلدون، العبر، جـ ٥ ص ٤٥٩؛ ابن الشحنة الذيل من كتاب المنهل، جـ ٣، ورقة ٨ أ.

(١٣٠) ابن تغرى بردى، المنهل، جـ ٢، ورقة ٤٠ ب.

(١٣١) المقريزى، السلوك جـ ٢، ص ٤١٢.

المذكور تمكينه الخدام والنساء من التصرف فى المملكة[١٣٢] ، وأن السلطان شعبان ما قوى عزمه على السفر الى الحجاز الا موافقة لأغراض نسائه[١٣٣] . كذلك يروى لنا أحد المعاصرين قصة طريفة مؤداها أن السلطان حسن بلغه أن الأمير الخاصكى يريد قتله وأنه لا يدخل الى الخدمة الا وهو لابس آلة الحرب من تحت ثيابه ، فأمر السلطان باستدعائه « وهو مع حريمه فى خلوة وأمر فنزعت ثيابه كلها ، ثم كتف يداه فشفعت فيه احدى حظايا السلطان ، حتى خلى عنه وخلع عليه ، واعتذر اليه ... »[١٣٤] .

وحسبنا أن نشير فى النهاية الى ما ذكره ابن حجر عن طغاى جارية السلطان الناصر محمد بن قلاوون التى « بسببها أبطل الناصر عن مكة المكس الذى كان يؤخذ على القمح[١٣٥] » ، وما رواه عن دنيا بنت الأقباعى المغنية الدمشقية ، التى حظيت عند السلطان الأشرف شعبان ، والتى كانت من أعظم الأسباب فى اسقاط مكس المغانى (ضمان المغانى) سنة ١٣٧٧/٧٧٨ ، اذ « سألت السلطان فى ذلك فأجاب اليه[١٣٦] » .

---

(١٣٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٦٩٢ ، ٧١٣ .
(١٣٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٠٨ .
(١٣٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٦٠ .
(١٣٥) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ .
(١٣٦) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٦٤ .

غير أن هذا النفوذ الواسع التى تمتعت به المرأة على عصر سلاطين المماليك كان سببا فى اثارة بعض فقهاء هـذا العصر وعلى رأسهم الفقيه ابن تيمية الذى كثيرا ما كتب محذرا من طاعة النسـاء لأن « أكثـر ما يفسـد الملك والدول طاعـة النساء[١٣٧] » .

---

(١٣٧) ابن تيمية ، مجموع فتاوى ، جـ ٢ ، ص ٧٧ .

الفصل الرابع

الزواج

الزواج

الزواج هو اللبنة الأولى فى بناء الأسرة التى هى أساس المجتمع ، وقد شرعه الله منـذ خلق أبانا آدم عليه السـلام ، للتوالد والتناسل وعمارة الكون . وقدجاءت الأديان السماوية تدعو اليه وتحث عليه ، كى يتحقق بقاء الجنس الانسانى الذى جعله الله خليفته فى الأرض ، بل أن الفطرة نفسها لتدعو اليه ، فالزواج ينظم هذه الفطرة ، فى صورة تحفـظ فيها الانساب وتصان الأعراض . وهو اذا ما روعيت أحكامه ، يضفى على الزوجين حياة سعيدة بسكون القلب واطمئنان النفس فى ألفة ومحبة وعطف . والى هذا يشير القرآن الكريم فىقوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

فالزواج « نظام الهى » وضعه الشارع الحكيم لخير الفرد والأسرة والمجتمع وقد جعله الله تعالى من آياته وعده نعمة على عباده ، لذلك عنى التشريع الاسلامى بعقد الزواج عناية خاصة ، نظرا لخطورته ، ولأثره فى حياة الانسان ووضع له من الأحكام فى مراحله ما يكفل تحقيق الأغراض المنشودة

منه . والواقع أننا لسنا بحاجة هنا الى التنويه الى كل هذا ، بقدر ما نحن بحاجة الى التعرف عن كيفية عثور الرجل على شريكة لحياته فى مجتمع سيطرت عليه تقاليد معينه كالحجاب والفصل بين الرجل والمرأة ، وعدم السماح برؤية العروس الا بعد زفافها . وكذا التعرف على التقاليد والعادات التى صاحبت الزواج اذ يقول الفقيه المغربى ابن الحاج فى هذا الصدد « أما النكاح فلا تسأل عما أحدثوا فيه ... وهو كثير متعدد قل أن ينحصر أو يرجع الى قانون معلوم لاختلافه بالنسبة الى الأقاليم والبلاد والعوائد[١٣٨] » .

حقيقة أن المصادر المملوكية التى تحت أيدينا الآن قد ضنت علينا بالكثير من المعلومات الخاصة بمراحل الزواج الأولى ، ونعنى بها مرحلة الخطوبة الا أنه من المسلم به أن الخاطبة قد قامت فى ذلك العصر بدور كبير فى اتمام مهمة الخطوبة . وصور هذا الدور بوضوح ابن دنيال الموصلى فى بابة « طيف الخيال »فاشار كيف يقصد راغب الزواج الخاطبة لأنها .« تعرف كل حرة وعاهرة ، وكل مليحة بمصر والقاهرة » . ذلك أنها تتظاهر ببيع الطيب والبخور وغير ذلك من لوازم النساء ، وبذلك يتاح لها دخول البيوت والاطلاع

---

(١٣٨) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٣ ، ص ٢٨٨ .

على أسرار الحريم فتستطيع أن تأتى للعريس بالعروس التى تتفق مع رغباته ومطالبه[١٣٩] . ويفهم أيضا من تمثيلية ابن دنيال ، أن هذه المرأة قد اعتادت أن تبالغ فى المعلومات التى تمد بها كلا الطرفين فالأمير وصال يفاجأ فى النهاية على حد قول هذا الكاتب « بعروسه شوهاء مخيفة » ولا يملك وقتها إلا أن يغمى عليه من هول بشاعتها وبعد أن يفيق يصمم على الانتقام من الخاطبة الداهية التى أوقعته فى هذا المأزق[١٤٠] .

وجرت العادة أنه اذا رضى الراغب فى الزواج بالمعلومات التى قدمتها له الخاطبة فانه يسرع اليها ثانية مقدما لها هدية ويرسلها من جديد الى عائلة الفتاة لتبلغها رغبته فى الاقتران بابنتها . وعلى الرغم من أن الشريعة الاسلامية قد نصت صراحة على ضرورة موافقة الفتاة على شريك حياتها ، الا أنه من الراجح أن الفتاة فى العصر المملوكى لم يكن لها أى رأى فى اختيار زوجها ، بل ظل الرأى الأول والأخير لوالدها، وربما شاركته فى ذلك أمها[١٤١] .

---

(١٣٩) ابن دنيال ، طيف الخيال ، ص ٣٩ ــ ٤٩ ،
Lane, The Modern. Egyptians, p. 162

(١٤٠) ابن دنيال ، طيف الخيال ، ص ١٣٢ .

(١٤١) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٩١ ؛ طاهر الطناحى ، الف ليلة وليلة ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ .

غير أنه من الصعب التسليم بأن أفراد طبقة المماليك قد سعوا أيضا الى اختيار زوجاتهم عن طريق الخاطبة وذلك لقلة المعلومات التى وصلتنا عن هذا الموضوع ، وان كنا نستطيع الجزم بأن أفراد هذه الطبقة قد ترك لهم حرية اختيار زوجاتهم من بين بنات جنسهم اللائى كن يجلبن الى مصر بواسطة تجار الرقيق ، ولعل فيما رواه المؤرخ بيبرس الدوادار بصدد زواج الملك الصالح بن السلطان المنصور قلاوون بخوند منبك خير دليل على ذلك ، اذ يقول : أن زوجة أبيه قد اختارت له « بنت سيف الدين نوكيه ، وكان له بنتان ، فمالت اليهم للجنسية ، ولأنهم وفدوا جميعا فى وقت واحد الى الديار المصرية ...[١٤٢] » وهذا يعنى أن الزواج عند هذه الطبقة كان بعيدا كل البعد عن الاعتبارات السياسية التى نلحظها فى مجتمع العصور الحديثة . حقيقة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد تزوج سنة ٧٢٠/١٣٢٠ بخوند طولبية ، احدى الأميرات المغوليات[١٤٣] ، بيد أن هذا الزواج لم يدم طويلا

---

(١٤٢) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة، جـ ٩ ، ص ١٣٨ب.

(١٤٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٢٢ ، ص ٢٢٨ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٣٢ ، ورقة ٢٠٥ ـ ٢٠٨ .

وسرعان ما هجرها[١٤٤] ليقترن بغيرها من بنات جنسه . فقد حرص أفراد طبقة المماليك على مصاهرة بعضهم البعض حتى كانت بين كثير منهم صلات نسب متينة . اذ جاء في كتاب السلوك للمقريزى أن السلطان الناصر زوج احدى عشرة ابنة من مماليكه[١٤٥] : مثل الأمير قوصون ، والأمير بشتاك ، والأمير الطنبغا الماردينى ، والأمير طغاتمر ، والأمير عمر بن النائب وغيرهم[١٤٦] . ونقرأ أيضا عن زواج الأمير منكلى بغا الشمسى بخوند سارة أخت السلطان الأشرف شعبان[١٤٧]، وعن زواج ستيتة ابنة السلطان المذكور بالأمير الكبير منطاش[١٤٨] . ونسمع كذلك عن زواج خوند زينب أخت

---

(١٤٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٩٨ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ١ ، ورقة ١٦٧ ب .

(١٤٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٣٦ .

(١٤٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٤٩ ، ٢٨٨ ؛ خطط ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٢ ، ورقة ٣٨٩ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، جـ ٣ ، ورقة ١١٥ أ ؛ اقبغا الخاصكى ، التحفة ، ورقة ١٢٠ أ ؛ على مبارك ، الخطط الجديدة ، جـ ٢ ، ص ١١٨ .

(١٤٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٥٧ .

(١٤٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٦٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٣٥١ ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٣٧٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٩ ، ص ١٤٥ .

السلطان فرج بن برقوق بالأمير سودون الحمزاوى[١٤٩] وعن اقتران ابنــة السلطان المؤيد شـيخ عام ١٤١٩/٨٢٢ بالأمير الطنبغا[١٥٠] وهكذا .

وتتحدث المراجع التاريخيــة التى وضـــعت فى العصر المملوكى عن السلاطين الذين تزوجوا من بناة الأمراء من أمثال السلطان المنصــور قلاوون الذى تزوج ســنة ١٢٨٢/٦٨١ بخوند أشلون ابنة الأمير سنكاى[١٥١] ، وبابنة الأمير شمس الدين سنقر التكريتى[١٥٢] ، والسلطان الكامل شعبان الذى حــرص على اختيــار زوجاته من بين بنــات مماليكه[١٥٣] ، والسلطان الظــاهر برقوق الذى تزوج بفاطمة ابنــة الأمــير

---

(١٤٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٢ ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(١٥٠) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ورقة ١٨٨ أ .

(١٥١) بيبرس الدوادار ، زبدة الفــكرة ، جـ ٩ ، ورقة ١٣٩ أ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٠٩ ؛ النويرى ، نهاية الارب ، جـ ٥ ، ورقة ١٢٥ ب ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١١٥ .

(١٥٢) تاريخ ابن الفرات ، جـ ٨ ، ص ٦٩ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٥ ، ورقة ١٤٠ ب .

(١٥٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٦٩٠ .

منجك[١٥٤] وبابنة الأمير منكلى بغا الشمسى[١٥٥] ، والسلطان جقمق الذى تزوج على حد زعم مؤرخى هذا العصر بخمس من بنات مماليكه[١٥٦] .

من هذا يتضح أن أفراد طبقة المماليك لم يحاولوا الزواج من أهل البلاد المصريين ، بل اختاروا كما سبق أن رأينا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللائى جلبهن التجار[١٥٧] . كذلك رسم السلاطين للقضاء والشهود أن لا يعقد أحد منهم قران مملوك من المماليك الا باذنه ويستثنى من ذلك بعض الحالات التى تتخذ دليلا على اختلال نظام المماليك كما حدث أيام السلطان الظاهر برقوق عندما رخص للماليك فى سكن القاهرة والاختلاط بأهلها « فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا الى البطالة ..[١٥٨] » . ويسجل لنا التاريخ

---

(١٥٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٥٣ .

(١٥٥) ابن اياس ، بدائع ، جـ ١ ، ص ٢٦٤ .

(١٥٦) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ورقة ١٩٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٤٠ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٥ .

(١٥٧) Ahmad Abd ar-Raziq, Un document, JESHO, XIII, p. 309 ; La Femme, p. 128.

(١٥٨) المقريزى ، خطط ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤ .

أيضا أسماء بعض الخوندات ممن أقدمن على الزواج من أفراد الشعب مثل خوند فاطمة ابنة السلطان الظاهر ططر التى تزوجت بالقاضى شرف الدين الانصارى ، الذى هجرها بعد قليل ليقترن بأبنه الأمير جرباش الكريمى[(١٥٩)] .

فاذا انتهى دور الخطوبة جاء الدور الثانى الخاص بعقد القرآن ودفع المهر أوالصداق الذى لا زواج بدونه [(١٦٠)] ، والذى كثيرا ما كان موضوع مساومات ومناقشات عديدة من كلا الطرفين [(١٦١)] . ويبـدو أن العـريس كان يئن دائما من الصداق اذ نرى الامير وصال فى بابة « طيف الخيال » يصف حاله فيقول : لابد من تدبير الحال وتجهيز المال على أنى الليلة أعوز من زنبور وأفلس من طنبور وأنشد يقول :

فى منـــزل لم يبـــق غيرى قاعـــدا
فاذا رقـــدت رقـــدت غير ممـــدد

لم يبق فيه ســـوى رســـوم حصيرة
ومخـــدة كانت لأم المهتـــدى

---

(١٥٩) الجوهرى ، انباء الهصر ، ورقة ٥٤ أ .

(١٦٠) التركمانى ، اللمع ، ورقة ٦٥ أ .

(١٦١) Lane, The Modern Egyptians, p. 164.

ملقى على طراحـــــة فى حشـــــوها
قمل شـــــبيه السمســـم المتبـــدد

هـــــذا ولى ثوب تراه مرقعـــــا
من كل لون مثـــل ريش الهـــدهد (١٦٢)

وقد جرت العادة ان يدفع جزء من المهر مقدما قبـل عقد القران ، أما الباقى الذى اصطلح على تسميته بمؤخر الصداق فكان يسدد على أقساط مؤجلة كما يفهم من أغلب عقود الزواج التى وصلتنا من هذا العصر والمحفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة (١٦٣) . وقد يبدو مناسـبا ونحن بصـدد الحديث عن الصداق أن نشير الى المبالغ الباهظة التى اعتادت طبقة المماليك أن تدفعها لنساء هذا العصر ، والتى حرص مؤرخو تلك الفترة على اثباتها فى مؤلفاتهم التاريخية لتشير الى المكانة الرفيعة التى التى احتلتها المرأة على عصر سلاطين المماليك ، اذ جاء فى النجوم الزاهرة للمؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى أن السـلطان جقمق

---

(١٦٢) ابن دانيال ، طيف الخيال ، ص ١٣٢ .

(١٦٣) Ahmad Abd ar-Raziq, Un document, JESHO, XIII pp. 310-312 ; La Femme, pp. 130-133 ;

سـعاد ماهر ، عقود الزواج على المنسـوجات الأثرية ص ٥ ـ ٣٦ .

عقد قرانه على نفيسة ابنة الأمير ناصر الدين بن دلغادر بعد أن حمل اليها المهر ألف ألف دينار وعدة أشياء كثيرة من الشـــقق الحرير وغيرها[١٦٤] ، وذكر المقريزى أن قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة عقد قران السلطان الناصر محمد بن قلاوون على خوند طولبيه على ثلاثين ألف دينار ، الحال منها عشرون ألفا ، والمؤخر عشرة آلاف[١٦٥] ، كما روى ابن اياس بصـــدد زواج ناصر الدين محمد بن السلطان الأشرف قانصـــوه بابنة الأمير سيباى ، نائب الشام على صـــداق جملته نحـــو عشرين ألف دينار[١٦٦] . وتشير المصادر أيضا الى أن الأمير بشـــتاك رأس نوبة تزوج بخوند سارة أخت السلطان الأشرف شعبان على صداق جملته خمسة عشر ألف دينار مصرية ، وأربعة مائة

(١٦٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ١١٠ ؛ على السخاوى ، تاريخ مصر ، ورقة ٥٣ ب .

(١٦٥) المقريزى الســـلوك ، جـ ٢ ص ٢٠٥ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٢ ص ٢٨٨ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٣٢ ، ورقة ٢٠٨ ؛ ابن قاضى شهبة ، الاعلام بتاريخ الاســـلام ، جـ ٢ ، ورقة ١٥٧ ب الذى أشـــار أن قيمة المهـــر قد بلغت ٦٠,٠٠٠ دينار .

(١٦٦) Wiet, Journal d'un bourgeois, I, p. 377.

ألف درهم فضة[١٦٧] ، وأن أنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون تزوج بابنة الأمير بكتمر الساقى على صداق مبلغه من الذهب اثنا عشر ألف دينار،المقبوض منه عشرة آلاف دينار[١٦٨]، وأن السلطان الصالح اسماعيل عقد على بنت الأمير أحمد بن بكتمر الساقى ، وأصدقها عشرة آلاف[١٦٩] ، كما نقرأ فى مصادر تلك الفترة أن السعيد بركة خان بن السلطان بيبرس البندقدارى تزوج بغازية خاتون ابنة المنصور قلاوون على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار ، المعجل منه ألفا دينار [١٧٠] ، كذلك يروى العينى فى تاريخه المعروف باسم عقد الجمان أن أبا بكر بن أرغون النائب تزوج باحدى بنات السلطان الناصر محمد بن قلاوون

---

(١٦٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ورقة ٧٥ أ .

(١٦٨) المقريزى ، السلوك جـ ٢ ، ص ٣٤٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٠٠ .

(١٦٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٦٢٣ .

(١٧٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٢٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٧٠ ؛ اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، جـ ٣ ، ص ١١٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٥١ — ٥٣ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٧ ، ورقة ٦٠٢ ؛ المقريزى ، المقفى ، ورقة ١٧٣ أ .

على صداق جملته أربعة آلاف دينار مضرية[١٧١] .

وجرت العادة ، أنه فى حالة زواج أحد أبناء أو بنات السلاطين أو الامراء أو أعيان الدولة ، أن تكتب له خطبة صداق تكون فى الطول والقصر حسب مكانة صاحب العقد[١٧٢] . ويروى ابن الحاج أن كثيرا من الناس فى عصره فضلوا عقد الأنكحة فى المساجد،فيجتمعون فيها ومعهم المباخر المفضضة التى يحرقون فيها البخور ، وبعد العقد ينصرفون فى حفل كبير[١٧٣]، ولعل ذلك راجع الى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « اعلنوا النكاح واجعلوه فى المساجد[١٧٤] » . بيد أن هذه العادة لم تكن وقفا على أفراد الشعب وعامته ، فقد درج أفراد طبقة المماليك أيضا على عقد الأنكحة فى المساجد كما جاء فى تاريخ مصر لأبن اياس الذى ذكر أنه فى صفر عام ٨٨٣/١٤٨٧ « كان عقد جانم الشريف قريب السلطان قايتباى على ابنة العلاى على بن خاصبك، وكان العقد بجامع القلعة ...[١٧٥] » .

---

(١٧١) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٣٢ ، ورقة ٣٣٤ .

(١٧٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣٠٠ .

(١٧٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٢٦٤ .

(١٧٤) سعاد ماهر ، عقود الزواج ، ص ١٣ .

(١٧٥) ابن أياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .

وبعد عقد القران تأتى الخطـوة الثالثة ، وهى اعـداد الشوار ونقله الى منزل الزوجية ويتناسب الجهـاز مع مركز أصحاب العروس ومدى ثرائم ، ففى أفراح السلاطين والامراء، كان الشوار يفوق دائما الوصف . وحسبنا أن نشير هنا الى ما رواه المؤرخون بصدد جهاز بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما تزوجت بولد أرغون نائب السلطنة بديار مصر ، التى جهزها السلطان « جهازا عظيما : منه بشخاناه ، ودائربيت، وستارات ... طرز ذلك بثمانين ألف مثقال ذهب مصرى، سوى مافيه من الحرير وأجرة الصناع . وعمل سائر الاوانى من ذهب وفضة ، فبلغت زنة الأوانى المذكورة ما ينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب . وتناهى فى هذا الجهاز ، وبالغ فى الانفـاق عليه حتى خرج عن الحد فى الكثرة ، فانها كانت أول بناته ، ولما نصب جهازها بالكبش نزل من قلعة الجبل ، وصعد الى الكبش حيث أعد منزل الزوجية وعاينه ورتبه بنفسه...[١٧٦] » . أما عن شوار ابنة الأمير بكتمر الساقى فيروى المقريزى أن جهازها خرج من قصر أبيها الأمير بكتمر وكان عدة الحمالين ثمانمائة حمال :

---

(١٧٦) المقريزى ، السـلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٤٩ ؛ خطط ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ ؛ اقبغا الخاصـكى ، التحفة ، ورقة ١٢٠ أ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٣٢ ، ورقة ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

المسـاند الزركش على أربعين حمـالا عدتهـا عشرة مسـاند ، والمدورات ستة عشر حمـالا ، والكـراسى اثنـا عشر حمالا ، وكراسى لطاف أربعة حمالين ، وسلم الدكك أربعة حمالين ، والدكك والتخوت الابنوس المفضضة والموشقة مائة واثنين وستين حمالا ، والنحاس الـكفت ثمانية وأربعـين حمالا ، والصـينى ثلاثة وثلاثين حمـالا ، والزجاج المذهب اثنى عشر حمالا ، والنحاس الشامى اثنين وعشرين حمالا ، والبعلبكى المدهون اثنى عشر حمالا ، والخونجات والمحـافى والزبادى والنحاس تسـعة وعشرين حمـالا ، وصـناديق الحـوائج خاناه ستة حمالين ، وغير ذلك تتمة العـدة ، والبغـال المحملة الفرش واللحف والبسط والصناديق التى فيها المصاغ تسـعة وتسعين بغلا ، ومع ذلك فلما نصب ورآه السلطان الناصر محمد والد العريس لم يعجبه وقال أنه رأى شوار بنت الأمير سـلار أحسن من هذا وأكثر والتفت الى الاميرين طقزدمر وأقبغا قائلا « جهـزا ابنيكما ولا تبخلا كما صـنع بكتمر[١٧٨] » . كذلك

---

(١٧٧) ابن حجر ، الدرر الـكامنة ، جـ ١ ، ص ٤١٨ ؛ الصـفدى ، أعيان العصر ، جـ ١ ، ورقة ١١٨ ب ؛ المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(١٧٨) الصـفدى ، أعيان العصر ، جـ ١ ، ورقة ٣٣ ب ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٤١٨ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ورقة ٣٣ ب ، ١٢٤ أ .

يروى أحد المعاصرون أن جهاز خوند ستيتة ابنة السلطان الأشرف شعبان حمل على خمسمائة حمال ، وعشرة قطر بغال ومشى الحجاب والعسكر معه ، كما أشار أيضا الى جهاز فاطمة ابنة الأمير منجك ، الذى حمله ثلاثمائة حمال ، وسبعون بغلا فى موكب كبير سار فيه الأمراء المقدمون والمماليك فى أفخر ثيابهم وبأيديهم الشموع(١٧٩) .

ولم تضن علينا المصادر بذكر قيمة تكاليف اعداد الشوار التى كانت تبلغ فى كثير من الأحيان بضعة آلاف من الدنانير ، فقد روى أحد المؤرخين أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون جهز احدى عشرة ابنة له بالجهاز العظيم ، فكان أقلهن جهازا بثمانمائة ألف دينار : « منها قيمة بشخاناه ودائرة بيت ومايتعلق به بمائة ألف دينار ، وبقية ذلك ما بين جواهر ولآلىء وأوانى ونحو ذلك(١٨٠) » . كما ذكر أيضا أن جهاز خوند فاطمة ابنة الأمير منجك بلغ تكاليف اعداده ثمانمائة ألف مثقال ذهبا(١٨١) .

---

(١٧٩) المقريزى السلوك ، جـ ٣ ، ص ٦٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣٥١ ؛تاريخ ابن الفرات ، جـ ٩ ، ص ١٤٥ ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٣٧٩ .

(١٨٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ ، ٥٣٦ .

(١٨١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٥١٤ .

على حين بلغت تكاليف شوار ابنة الأمير سلار مائة وستين ألف دينار[١٨٢] .

أما اذا لم يكن أصحاب العرس من الأمراء ، فانه يحتفل بنقل الشوار فى حفل يشترك فيه الأقارب والمعارف . وجرت العادة أن يكون فى ذلك الشوار سبع دكك من فضة ، ودكة نحاس مكفت ، ودكة من نحاس أبيض ، ودكة من خشب مدهون، ، ودكة من صينى ، ودكة من بلور ، ودكة كداهى وهى آلات من ورق مدهون تحمل من الصين[١٨٣] . والدكة عبارة عن شىء يشبه السرير يوضع فوقها أوانى مختلفة من كاسات وأطباق وسرج وأحقان وأشناف وطشت وأبريق ومبخرة[١٨٤] ، هذا عدا الشطرنج وغيره من ، الكماليات التى تحمل مع الجهاز[١٨٥] .

وفى ليلة الزفاف تقام وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء تسمى

---

(١٨٢) ابن قاضى شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ورقة ١٤٩ ب ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٩ .

(١٨٣) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ؛ ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

(١٨٤) زكى حسن ، فنون الاسلام ، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ .

(١٨٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٣٤ .

وليمة العرس ، وهما فى الواقع وليمتان احداهما للنساء ، وتقام فى بيت العروس والأخرى للرجال وتقام فى بيت العريس وأحيانا تقام الوليمتان فى بيت واحد . وجرت العادة أن يعد صاحب العريس « ما ليس من عادته أن يطبخه مما هو فوق طاقته ، فترى والد العريس وأم العروسة أو أم العريس يبيع أحدهم ثيابه فى عمل الطعام أو يقترض غالب ذلك ولو بالربا ... فيعمل ذلك الطعام متكرها له متفاخرا به[186] » . وبعد الطعام — أى فى المساء — يخرج العريس قاصدا بيت العروس فى موكب كبير يحف به الأهل والأصدقاء . وبوصول العريس الى منزل العروس يبدأ حفل الزفاف . وتفيض المراجع المعاصرة بأخبار أفراح المماليك ، وما تنطق به هذه الافراح من ثروة واسراف . من ذلك ما يرويه المقريزى عن فرح احدى بنات السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكيف أن السلطان « عمل المهم مدة ثلاثة أيام حضره نساء الأمراء بتقادمهم وهى ما بين أربعمائة دينار ، سوى تعابى القماش ، الى مائتى دينار » وكان فيه ثمانى جوق من مغانى القاهرة وعشرون جوقة من مغانى السلطان والأمراء ، خص كل جوقة من جوق القاهرة خمسمائة دينار ومائة وخمسون

---

(١٨٦) زكى مبارك ، التصوف ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ .

تفصيلة حرير ، ولم يحصل ما حصل لجوارى السلطان والأمراء لكثرته . فلما انقضى المهم بعث السلطان لكل من نساء الأمراء تعبية قماش على قدرها ، وعم جميع الامراء بالخلع ، وفضل من الشمع بعد ما استعمل منه مدة العرس ألف قنطار(١٨٧) .

وما يذكره أحد الكتاب بصدد فرح ابنة الأمير بكتر الساقى حينما أمر نفس السلطان « باحضار جميع من بالقاهرة ومصر من أرباب الملهى الى الدور السلطانية ، ووقع الشروع فى عمل الخوان فأقام المهم سبعة أيام بلياليها . وأستدعى السلطان حريم جميع الأمراء اليه ، فكان أمرا عظيما . فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر ، وتقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ، ومعهم الشموع ، فاذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر . وما زال السلطان بمجلسه حتى انقضت تقادمهم ، فكانت عدتها ثلاثة آلاف وثلاثين شمعة زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطار ، فيها ماعنى به ونقش نقشا بديعا تنوع فى تحسينه ، فكان أبهجها شمع الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، فانه أعتنى بأمرها وبعث الى عملها بدمشق ،

---

(١٨٧) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ ، السلوك ، جـ ٢ ص ٢٤٩ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٣٢ ، ورقة ٣٩٠ .

فجاءت من أبدع شيء ... حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان وعبر الى حيث مجتمع النساء ، فقامت نساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى ، وهى تقدم ما أحضرت من من التحف الفاخرة والنقوط حتى انقضت تقادمهن جميعا . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن فرقصن أيضا واحدة بعد واحدة ، والمغانى تضربن بدفوفهن ، وأنواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير يلقى على المغنيات ، فحصل لهن ما يجل وصفه ، ثم زفت العروس . فكان هذا العروس من الأعراس المذكورة ، ذبح فيه من الغنم والبقر والخيل والأوز والدجاج ما يزيد على عشرين ألفا ، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر ألف قنطار وبلغت فيه ما حمله الأمير بكتمر الساقى مع ابنته من الشورة ألف ألف دينار مصرية(١٨٨) .
ويحكى المؤرخ ابن اياس عن زواج خوند فاطمة الخاصبكية بالعادل طومان باى انها « خرجت من بيتها الذى بقنطرة سنقر وهى فى محفة زركش ، مشت قدامها الرءوس النواب والحجاب والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، وبقية المباشرين قاطبة ،

---

(١٨٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣٤٣ ــ ٣٠٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ١٠٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ١٥٧ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ ٤ ، ص ١٠٦ ؛ ابن حبيب ، درة الأسلاك ، جـ ٢ ، ورقة ١٩٣ ب .

وأعيان الطواشية ، وكان معها من نساء الأمراء والأعيان نحو من مائتى امرأة • فلما وصلت الى باب الستارة ، أحد أبواب القلعة ، فرشت لها الشقق الحرير تحت حافر بغال المحفة ، ونثرت على رأسها خفائف الذهب والفضة ، وحمل الزمام القبة والطير على رأسها ، حتى جلست بقاعة العواميد ، والشبابة السلطانية عمالة ، وكان يوما مشهودا بالقلعة ، واستمر المهم عمال بالقلعة ثلاثة أيام ، وكان لها موكب حافل لما شقت من الصليبة ، وكان قدامها المجمع السلطانى ، ، والبقج وطشت وابريق بللور ، ومدورة زركش ، ولم يتفق هذا الموكب لأحد من الخوندات قبلها[١٨٩] » •

وتحرص المدعوات اللاتى يحضرن الفرح على ارتداء الملابس الفاخرة والتحلى بالمجوهرات الثمينة[١٩٠] • وكثيرا ما تباهى المدعوون والمدعوات بالمبالغة فى تقديم النقوط الى المغانى وتقديم الهدايا من الشمع[١٩١] ، والتحف الفاخرة ، والخراف والسكر والأوز وغيرها الى أصحاب العرس[١٩٢] •

---

(١٨٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣

(١٩٠) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 157.

(١٩١) Zetterstéen, Geschichte, p. 185.

(١٩٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٠١ — ١٠٢ •

ويبدو أن تلك الهدايا اعتبرت ضريبة أو دينا لابد من دفعه حتى تضايق بعض الأمراء من المماليك فى وقت من الأوقات بسبب كثرة الأفراح وقالوا كما جاء على لسان المؤرخ ابن تغرى بردى « هذه مصادره[١٩٣] ! » .

أما العروس فكانت تتصدر ذلك الحفل بعد أن تستكمل زينتها وبهاءها ، اذ تقوم الماشطة بتكحيلها وتمشيطها وتخفيفها ، كما يفهم من قصص ألف ليلة وليلة ، ثم الباسها أفخر الثياب المطرزة ، وغالبا ما تضع على رأسها شربوشا[١٩٤] وهو أشبه بالتاج الذى ترتديه عرائس اليوم . ومن العادات الغريبة فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، إن الناس كان من عادتهم فى الأعراس أن يلبسوا العرائس لباس الرجال من جندى وقاض وغيرهما[١٩٥] . وفى نهاية الاحتفال اعتاد العريس أن يأخذ عروسه من يدها ، وعندئذ تقبل العروس يد

---

(١٩٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٩ ، ص ٢١٢ .

(١٩٤) تاريخ ابن الفرات ، جـ ٩ ، ص ١٤٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٤٧٩ ؛ ابن دنيال ، طيف الخيال ، ص ١٣٦ .

(١٩٥) زكى مبارك ، التصوف ، جـ ١ ، ص ٣٤٧ ؛ الشعرانى ، لواقح الأنوار ، ص ٣٣١ .

زوجها[١٩٦] . ويبدو أيضا أن العادة جرت فى أفراح ذلك العصر أن تقدم العروس لزوجها ــ فى اللحظة التى تجلى عليه ــ سيفا فاخرا تمسكه من طرفه فيتناوله العريس من مقبضه[١٩٧] . كما اعتاد العريس فى أغلب الأحيان أن يعلق فى شربوش العروس بعض الدنانير ، فقد أشارت بعض المصادر المملوكية أن الأمير منطاش علق بشربوش خوند ستيتة ليلة أن زفت اليه،دينار زنته مائتان مثقال ، ثم دينار زنته مائة مثقال وذلك بعد أن جلتها عليه خوند سمراء زوجة السلطان الأشرف شعبان[١٩٨] .

ورغم أن مراجع العصر المملوكى قد ضنت علينا بالكثير من التفاصيل بصدد أفراح المصريين وحفلات عرسهم ، فان قصص ألف ليلة وليلة تؤكد أن كثيرا منهم عمد الى المبالغة وأن ما فعلوه لم يكن فى الواقع سوى صورة مصغرة لما اعتاد أن يفعله سلاطين المماليك وأمراؤهم فى أفراحهم[١٩٩] .

---

(١٩٦) سيرة الظاهر بيبرس ، جـ ٩ ص ٢٣ .

(١٩٧) Dopp, Le Caire Vu . . . , BSRGE, XXII, p. 140.

(١٩٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٦٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣٥١ ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٣٧٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٩ ، ص ١٤٥ .

(١٩٩) Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, pp. 192, 205, 209, 212, 214 ; Frescobaldi, Visit, pp. 167-168 ; Dopp; Le Caire Vu . . . , BSRGE, XXIII, pp. 139-140.

أما عن الفلاحين وأفراحهم ، فتشير بعض المصـادر الى أنهم اعتادوا أن يطوفوا بالعريس فى أنحاء القرية وسط ضرب الطبول ومدح المنشدين ، وحوله « الجدعان تخبط بالنبابيت »، ولا يزالون به حتى يصل الى بيت العروس حيث يقام هنـاك حفل صاخب يشترك فيه أصحاب الرباب ، والنساء يزغردن وينثرن الملح على العروس خوفا عليها من الحسد ، بعد أن تكون قد استكملت زينتها ، ثم يجلسوها على شىء مرتفع عال ، ويأتى اليها الطبال وينشدوها الأشعار مما هو مناسب لها مثل « يا عروسة يا أم غالى ، انجلى ولا تبالى » وأيضا « يا عريس قم خذ عروستك ، واطلع بها فوق العلالى ، وافرشوا القبـة وناموا فوقها جنح الليالى ... »،ثم أنهم يجتمعوا حول العروس وينادى بينهم رجل بيده شعلة من قماش ، « هاتوا النقوط ، صاحب العرس بقى فى أمان ، هاتوا يانسا ، يا جدعان » . فيعطيه الشخص منهم الدرهم والدرهمـين والبعض يرمى له النصف أو النصفين ، وعقب ذلك يدخلون العروسين الى البيت ويغلقوا عليهما الباب ، ويدقوا لهم بالحجارة على الأعتاب ... وبعد ثلاثة أيام يخرجوا العروس بالتمام ويكشفوا عن وجهها للمرة الثانية « ويجعلوها للناس شهرة ويأخذوا أيضا النقوط من الناس[٢٠٠] » .

---

(٢٠٠) الشربينى ، هز القحوف ، ص ٩ ــ ١٠ ،
Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pp. 162-163.

كذلك وجد في القصص الشعبي المعاصر بعض اشارات لأفراح الأعراب والبدو ، عندما ترقص الجارية وسط جموع الرجال ، ثم تطوف عليهم وفى يدها الرق لتجمع « عوايدها من العرب[٢٠١] » .

وعن أفراح أهل الذمة ، يذكر المؤرخ ابن حجر فى تاريخه المعروف باسم ابناء الغمر ، أنه سمح لهم فى عصر المماليك باقامة أفراحهم بالملاهى والمغانى على عادتهم[٢٠٢] ، وان كان قد أغفل أن يشير الى طبيعة هذه العادات .

والحديث عن الزواج على عصر سلاطين المماليك يجرنا أيضا الى الاشارة الى ظاهرة تعدد الزوجات ، فعلى الرغم من أن الاسلام لم ينشىء هذا النظام ولم يوجبه ، ولم يستحسنه ، فان هذه الظاهرة قد بزت هـذا العصر شـأن بقية العصـور الأخرى السابقة واللاحقة ، لذلك فان دراستنا هذه لا تسعى الى البحث عن أسباب هذه الظاهرة بقدر ما تهدف الى محاولة رسم صورة لها . فقد ذاعت ظاهرة تعدد الزوجات لدى طبقة المماليك وحسبنا أن نذكر فى هذا المجال أن السلطان الناصر

---

(٢٠١) سيرة الظاهر بيبرس ، جـ ٨ ، ص ٩ .

(٢٠٢) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ .

محمد بن قلاوون كان متزوجا من أربع زوجات وشغف أيضا بحب الجوارى ، فكتب الى أعمال مصر ببيع الجوارى المولدات وحملن اليه ، وأخذهن حتى من المغنيات ، فزادت عدتهن عنده على ألف ومائتى وصيفة(٢٠٣) . ويروى أيضا الرحالة الفلورنسى سيجولى الذى زار مصر على عصر السلطان برقوق ، أن هذا الأخير كان متزوجا من سبع نساء وكان يمتلك عددا ضخما من الجـوارى والمحظيات يصعب على المـرأ فى بعض الأحيـان حصره(٢٠٤) . ونسمع أيضا أن عدد زوجات السلطان جقمق قد تجاوز هذا العدد(٢٠٥) ، وعن تمسك أمراء المماليك بفكرة تعدد الزوجات . فقد أشار المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى أن الأمير سيف الدين كراى كان اذا سافر يصحب معه جواريه « وكان له أربع زوجات وثلاثون حظية من جواريه(٢٠٦) » . كذلك أصر العربان على فكرة تعدد الزوجات والاكثار من الأبناء

---

(٢٠٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٤٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٢١٠ ؛ حوادث الدهور ، ص ٢٢٩ .

(٢٠٤) Schefer, Voyage d'Outremer, p. XIII ; Frescobaldi, Visit, p. 172.

(٢٠٥) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ورقة ١٩٥ أ ، ب ؛ ابن اياس ، بدائع ، جـ ٢ ، ص ٣٥ .

(٢٠٦) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى جـ ٥ ، ورقة ٤٢ أ .

حتى بلغت نساء وأبناء أحد مشايخهم ثمانين ولدا وأربع مائة امرأة[٢٠٧] . ويفهم من بعض المراجع المعاصرة أن الاعرابى فى عصر المماليك احتفظ بحق الزواج بمن يشاء من بنات الفلاحين، واذا منع فلاح ابنته عمن يطلبها من الأعراب فمصيره القتل[٢٠٨]. وعلى العكس لم يسمح اعرابى لفلاح الزواج من ابنته[٢٠٩] .

ومع هذا فقد جاء فى نفس المصادر أن السلطان الأشرف اينال تزوج بخوند زينب بنت خاصبك « فى امرته ولم ينفك عنها ولا بعد سلطنته حتى مات.ولم يتزوج عليها ولا تسرى وكل أولاده المؤيد أحمد وغيره منها بحيث انفرد عن سائر الملوك بذلك ، كما انفردت هى عن سائر الخوندات بالمزيد من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة[٢١٠] ، ونقرأ أيضا عن الشمس الأمشاطى لم يتزوج بغير عمائم والدة أبى الفوز وأنه قد حفظ

---

(٢٠٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٤ ، ص ٣٥٧ .

(٢٠٨) سيرة الظاهر بيبرس ، جـ ٨ ، ص ٩ .

(٢٠٩) Lane, The Modern Egyptians, p. 195.

(٢١٠) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٢٩ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٤٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٦٤ ، ١٨٩ .

صحبتها وقدم عشرتها بحيث رام منه غير واحد التزوج عليها شأن عادة الرجال فى تلك الفترة ، « فامتنع منه وبل من التسرى وغبطها النساء بهذا[٢١١] » .

مما تقدم نستطيع القول بأنه اذا كانت ظاهرة تعدد الزوجات قد شاعت على عصر سلاطين المماليك ، فقد وجدت فئة غير قليلة من الرجال ، ممن رفضوا التمسك بهذه الفكرة ، واكتفوا بالاحتفاظ بزوجة واحدة عملا بالآية الكريمة « وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، ولشدة أعباء التزويج ، فقد كتب أحد المعاصرين على سبيل المماجنة : « لو كانت الشركة تصح فى الزوجات لشاركت فى جزء من أربعة وعشرين جزءا » ، وقال آخر لصديق له : « ان استطعت أن تكتفى فى هذا الزمان بنصف امرأة فافعل[٢١٢] » . بل لعل أبدع ما قيل فى هذا الشأن ، تلك الأبيات التى صاغها ابن منصور أحد شعراء عصر المماليك بصدد قسوة الزواج وأعبائه :

يا طالب التزويج انك بالذى

تبغيه منى جاهل معذور

---

(٢١١) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٨٤ .

(٢١٢) الأدفوى ، الطالع السعيد ، ص ٢١٨ .

هل أبصرت عيناك صاحب زوجة

الا حزينا ما لديه سـرور[٢١٣]

ولكن كيف تقبلت المرأة على عصر سلاطين المماليك ظاهرة تعدد الزوجات ، وكيف رضيت لنفسها أن يشاركها فى رجلها ، العديدات من الحظايا والجوارى رغم ما اشتهرت به من الغيرة الأزلية . تلك الغيرة التى دفعت بشجر الدر ، أولى سلاطين تلك الدولة ، أن تتربص بزوجها الملك المعز أيبك حتى دخل الحمام ، ورتبت له من دخل عليه ولكمه وأرماه أرضا ، « والجوارى ترفس فيه وهى تضربه بالقبقاب الى أن مات وهو يستغيث اليها ويتضرع » ، وكل ذلك لأنها « غارت منه لما خطب ابنة الأمير لؤلؤ صاحب الموصل[٢١٤] » .

رغم قلة الاشارات التى عثرنا عليها فى بطون كتب هذا العصر ، فانه يمكننا القول أن نساء هذا العصر قد اعتدن ، فيما يبدو ، تقبل هذا الوضع دون أى اعتراض ، بدليل ذلك

---

(٢١٣) ابن شاكر ، فوات الوفيات ، جـ ١ ، ص ١٦ .

(٢١٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٧ ، ورقة ٢٨٩ ؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٧ ؛ ابن شاكر ، عيون التواريخ ، جـ ٢٠ ، ورقة ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ .

الوفاق العجيب الذى نلحظه بين الضرتين فى قصة قمر الزمان ابن الملك شهرمان ، وفى قصة علاء الدين أبى الشامات ـ من قصص ألف ليلة وليلة . بل والعجيب أن الصورة المألوفة عن كره الضرتين ، لا نجدها فى الليـالى[٢١٥] ، وكل ما هنالك اشارات بعيدة جدا عن غيرة الزوجة من السرية أو العكس[٢١٦]، وقد نسمع أن شخصا اشترى جارية لخدمته فتحقد الجـارية على سيدتها وتتملكها الغيرة وتعمد الى قتلها حتى يخلو لها وجه سيدها[٢١٧] .

كذلك لم تجد المرأة أية غضاضة ، أو مرارة ، أو حرجا ، أو موقفا غير عادى ان هى أقدمت على الزواج بعد وفاة زوجها، أو بعد طلاقهـا ، حتى ولو كانت زوجة لسـلطان ، أو أما لسلطان ، وكثيرا ما تزوجت بسلطان آخر أو بأحد الأمراء ، أو

---

(٢١٥). Mardrus, Le Livre des mille nuits, III, pp. 76, 102.

(٢١٦) الجوهرى ، انباء الهصر ، ورقة ١٨٦ أ ؛ ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٣١ ؛ سهير القلماوى ، ألف ليلة وليلة ، ص ٣٢١ .

(٢١٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٨٧٢ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ .

حتى برجل كان مملوكا لزوجها السابق . واذا كانت هذه هى عادة الخوندات من زوجات السلاطين ، فلا غرابة ان اتبعها كذلك زوجات الأمراء وغيرهن من نساء كبار موظفى الدولة . ويحدثنا التاريخ ان السلطان الاشرف برسباى تزوج بأرملة السلطان الظاهرة خشقدم الأحمدى ، وأن السلطان الناصر محمد بن قايتباى تزوج بمطلقة الأمير كرتباى نائب صفد ، وأن السلطان طومان باى تزوج بخوند فاطمة بنت العلاى بن خاصبك ، التى كان قد سبق لها الزواج بالسلطان الاشرف قايتباى[٢١٨] ، وأن الأمير الجاى اليوسفى تزوج بخوند بركة فى أيام سلطنة ولدها الاشرف شعبان[٢١٩] وكثيرا ما نقرأ عن بعض نساء هذا العصر ممن تزوجن أكثر من مرتين . فقد أشار السخاوى الى أن خوند خديجة ابنة الأمير حاجى البيسرى

---

(٢١٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ؛ رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ، جـ ١ ، ص ٣٧٥ .

(٢١٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢١٠ ، ٢١٢ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٤٧ ــ ٤٧٥ ؛ انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢٨١ ، ٢٩٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣٨٠ ؛ المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ورقة ٨ ب ، ٧١ ب ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٣ ، ص ٨٧ .

تزوجت ست مــرات[٢٢٠] ، والى أزواج ست الخلفاء ابنــة الخليفة المستنجد بالله الخمسة[٢٢١] ، والى الأزواج الأربعــة التى اقترنت بهم خوند قنقباى الواحد تلو الآخر[٢٢٢] ، والى أزواج سعادات بنت الشيخ البوشى ، الثلاثة[٢٢٣] .

والواقع أننا لسنا هنا بحاجة الى تعليل اقدام المــرأة على الزواج عدة مرات ، لأننا نعلم تمام العلم ، أن المرأة على عصر سلاطين المماليك ، شــأنها فى هذا شأن نساء العصــور الوسطى عامة ، كانت دائما بحاجة الى من يحميها ، كما نعرف أيضا أن المرأة المطلقة والأرملة كان ينظر اليها نظرة خاصة فى المجتمع ، نظرة ملؤها الشك والريبة فى أغلب الأحيان ، بل لا زلنا نرى هذه الصورة فى مجتمعنا الحديث حتى الآن ، لذلك لا عجب ان استحسن بعض قضاة هذا العصر حبس المرأة اذا

---

(٢٢٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٢٥ .

(٢٢١) ابن اياس ، بدائــع الزهــــور ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٥٥ .

(٢٢٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ١١٧ .

(٢٢٣) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٦٢ ــ ٦٣

حبس زوجها « صيانة لها من الفجور[٢٢٤] » ولا غرابة أيضا ان أقدمت الدولة على العناية بالمنشآت الاجتماعية التى خصصت لاستقبال الأرامل أو المطلقات مثل رواق أو رباط البغدادية الذى سبق أن أشرنا اليه والذى كانت تودع فيه النساء اللاتى طلقن أو هجرن ، حتى يتزوجن أو يرجعن الى أزواجهن ، صيانة لهن ، لما كان فيه من شدة الضبط ، وغاية الاحتراز ، والمواظبة على وظائف العبادات حتى أن خادمة الفقيرات به كانت لا تمكن أحدا من استعمال ابريق ببزبوز ، وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه[٢٢٥] . كذلك يجب ألا ننس أن المرأة كانت دائما بحاجة الى من يرعاها ويطعمها ويوفر لها الحياة الآمنة المطمئنة . ومع ذلك فهناك من نساء عصر المماليك من رفضن الزواج بعد طلاقهن أو وفاة أزواجهن مثل غازية خاتون ابنة السلطان المنصور قلاوون[٢٢٦] ، وزوجة الأمير قجليس[٢٢٧] ، وخوند فرح ابنة الأمير سودون

---

(٢٢٤) ابن الشحنة ، لسان الحكام ، ورقة ١٢ ب .

(٢٢٥) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ، ص ٤٢ ؛ السلوك ، جـ ٢ ص ٦١١ .

(٢٢٦) مرعى بن يوسف ، نزهة الناظرين ، ورقة ٦٩ ب ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٢٧٢ .

(٢٢٧) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤ .

الفقيه [٢٢٨] ، وخوند زينب أم المؤيد أحمد[٢٢٩] وغيرهن من نساء عامة الشعب مثل تجار أم عبد الله التى رفضت الزواج بعد وفاة زوجها سراج الدين الخروبى ، وفضلت أن تعيش أرملة الى يوم وفاتها[٢٣٠] .

---

(٢٢٨) محمد مصطفى : صفحات لم تنشر : ص ١٧٠ .

(٢٢٩) Wiet, Histoire Mamlouke, II, p. 173.

(٢٣٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ؛ ص ١٦ .

الفصل الخامس

الأسرة

الأسرة

اذا كان الزواج هو اللبنة الأولى فى بناء الأسرة ، فان الأخيرة هى أساس المجتمع السليم ، لذلك ينبغى علينا قبل أن نبدأ الكلام عن الأسرة على عصر سلاطين المماليك ؛ أن نشير الى ذلك الوعاء الذى كانت تجرى فيه الأحداث العائلية ونعنى به المنزل ، الذى كانت تمارس فيه الأسرة حياتها وتجاربها . فقد اهتم المماليك اهتماما خاصا بقصورهم ومنازلهم ، كما يتضح من تلك البقايا القليلة التى حفظتها لنا الأيام من تلك القصور والمنازل التى وصلتنا من العصر المملوكى . ولم تقتصر تلك العناية على هندسة البيوت وتنظيمها وانما امتدت أيضا الى تجميلها وزخرفتها ، كما يتضح ذلك من بقايا قصر الأمير طاز[231] ، ومن أطلال قصر الأمير بشتاك التى بدت سقوفه منقوشة بالذهب وقد توسطت فناءه فسقية بديعة من الرخام وكسيت بعض جدرانه بالأخشاب ذات الزخارف المخروطة

---

(٢٣١) كمال سامح ، العمارة الاسلامية ، ص. ١٦٤ .

والمطعمة[٢٣٢] ، وأيضا من منزل زينب خاتون الذى أعادت اليه مصلحة الآثار شيئا من رونقه القديم[٢٣٣] .

ومن الثابت أيضا أن أهل مصر بوجه عام اهتموا اهتماما بالغا بتشييد المنازل وتأثيثها وتزويدها بكل وسائل الراحة . ويفهم من كتابات الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر على زمن سلاطين المماليك ومن بعض قصص ألف ليلة وليلة أن هـذه المنازل كانت تبدو بسيطة فى مظهرها الخارجى ، ولـكنها فى الداخل مرتبة وغاية فى التنسيق ، ومقسمة الى حجرات مختلفة ومزينة على خير صورة[٢٣٤] . ويذكر أحد المعاصرين عن أبنية المصريين أن فيها هندسة بارعة وترتيب للغاية « واذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية ، استحضر المهندس وفوض اليه العمل[٢٣٥] » . ووصف جيهان تنو الدار التى نزل بها فى مصر أثناء زيارته لها سنة ١٥١٢/٩١٨ ضمن السفارة التى بعث بها

---

(٢٣٢) Pauty, Les Palais du Caire, p. 43.

(٢٣٣) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 178.

(٢٣٤) Letts, Pilgrimage, pp. 111-112 ; Fabri, Evagatorium, III, p. 82 ; Schefer, Voyage magnifique, p. 213 ; Carré, Voyageurs, I, p. 3.

(٢٣٥) عبد اللطيف البغدادى ، أخبار مصر ، ص ٩٠ — ٩١

لويس الثـانى عشر الى السلطان قانصـوه ، فذكر ردهاتها الواسعة وجدرانها المزخرفة بالألوان الجميلة وأبوابهـا ذات المقابض المصنوعة من العاج ، هذا عدا الفسقية التى توجـد بفناء الدار والتى تحيط بها الأشجار الباسقة(٢٣٦) .

والواقع أنه لا يعنينا هنا وصف قصور العصر المملوكى ومنازله ، بقدر ما يهمنا أن نشير الى أثر المرأة على عمارة هذا العصر السكنية ، اذ كان على مهندسى العصر المملوكى أن يراعوا حجاب المرأة أثناء تخطيطهم لهذه البيوت ، ومن ثم فقد حرصوا على عدم تمكين أى فرد بالخارج أن يرى شيئا من داخل المنزل. ويتضـح ذلك جليا فى عمل انـكسار فى مدخل الدار فينحنى الداخل من الباب الرئيسى غربا نحو دهليز ومنه ينحرف الى فناء الدار الداخلى الذى يتوسطه . وهذا أيضا منعا من رؤية من يجلس داخل الفناء من أهل المنزل . كذلك عمدوا الى جعل النوافذ بعيدة عن أعين المارة أو حتى لراكبى الأبل فى الطرقات فجعلت عالية بقدر المستطاع كما سدت بمشربيات مصنوعة من الخشب « الخرط » الجميل وبها ثقوب تمكن من بالداخـل رؤية من بخارجه ، دون أن تسمح للفضوليين من المارة برؤية

---

(٢٣٦) Sarré, Voyageurs, I, pp. 3-4.

من بالداخل من النساء • كما راعوا أيضـــا تقسيم الدار الى قسمين رئيسيين أحدهما بالطابق الأرضى خاص بالرجال وهو الذى عرف فيما بعـــد باسم السلاملك وقد أعد للاســتقبال واقامة الحفلات ، والآخر بالطابق العلوى وهو خاص بالحريم وقد عرف أيضا باسم الحرملك وعملوا أيضا على ايجاد مداخل ثانوية خاصة بالنساء حتى لا ترمقهم أعين الزوار حين دخولهن أو خروجهن • بيد أن كل هذا لم يكن يعنى حبس أهل المنزل من النساء فى جو مقبض غير صالح ، اذ لاحظ تافور أنه رغم حرارة الجو فى شوارع القاهرة ، الا أنه معتدل ولطيف داخل المنازل(٢٣٧) •

أما عن الحياة العائلية داخل هذه البيوت ، فلا نكاد نجد عنها شيئا فى المراجع المعاصرة يختص بطبقة المماليك ، ســوى أسماء متناثرة لبعض الجوارى والنساء ، الأمر الذى جعــل كثيرا من الكتاب يعتمدون على قصص ألف ليلة وليلة للوقوف على مظاهر الحياة العائلية فى تلك الفترة(٢٣٨) • ويرجع السبب فى ندرة ما وصلنا عن أحوال المماليك العائلية ، هو أن المماليك

---

(٢٣٧) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pp. 178-179.

(٢٣٨) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١١٣ ؛ Lane — Poole, Cairo, p. 22 ; A History of Egypt, p. 251.

أنفسهم لم تكن لديهم حياة عائلية بالمعنى المعروف رغم أنهم حاولوا تكوين أسرات . ذلك أن أسلوب المماليك فى الحياة لم يقم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهى الأب والأم والأولاد ، بقدر ما قام على أساس الرقيق والمماليك الذين أحلوهم فى نظامهم محل الأبناء . فمن نظمهم البارزة أن الابن لا يخلف أباه فى مركزه ولا يرثه فى ثروته ، وانما المملوك هو الذى كان يحل محل أستاذه ويرثه حتى فى الاستيلاء على حريمه(٢٣٩) . ويكفينا للتدليل على ذلك أن الأمير منهم كان لا يأكل مع أبنائه أو حريمه ، وانما يفضل أن يأكل مع مماليكه، واذا رأى نارا توقد سأل عنها فيقال أن فلانا اشتهى كذا فيغضب ممن لا يأكل عنده(٢٤٠) . كذلك كثيرا ما نصت بعض الحجج الخاصة بأوقاف المماليك على أن الاستاذ أحق الناس بالتمتع بريع الوقف الذى يقفه المملوك(٢٤١) . ومن ثم فقد أصبحت الحياة العائلية لطبقة المماليك لا تقوم على العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه وانما تقوم على أساس العلاقة بين الأمير ومماليكه أو بين المملوك وأستاذه .

---

(٢٣٩) Muir, The Mamluke or Slave dynasty, p. 225.

(٢٤٠) المقريزى ، خطط ، جـ ١ ، ص ٨٧ — ٨٨ .

(٢٤١) أنظر حجة وقف السلطان الغورى (أرشيف الأوقاف ٨٨٣) .

يضاف الى هذا أن نظام التسرى وتعدد الزوجات ساعدا أيضا على أضعاف الروابط الأسرية ، اذ كان من الصعب على زوج لأربع من النساء ، ومالك للعديد من الجوارى والمحظيات أن يجد وقتا كافيا لتكريسه لنسائه ولأبنائه(٢٤٢) . كذلك كان للشذوذ الجنسى الذى ابتلى به المجتمع المصرى على عصر سلاطين المماليك أثره الفعال على العلاقات الزوجية ، لدرجة أن غالب نساء هذا العصر عمدن الى التشبه بالذكور فى ملبسهن ، كمحاولة منهن « لاستمالة قلوب الرجال(٢٤٣) » .

وهكذا أصبحت الحياة الأسرية لطبقة المماليك تتسم بطابع التفكك ويسودها طابع الجمود والسطحية . ومع هذا فقد وجد بين نساء هذا العصر العديدات ممن عبرن صراحة عن حبهن لأزواجهن وعن وفائهن لأولئك الأزواج ، رغم ما نعتوا به من صفات حب النفس والذات ، مثل غازية خاتون ابنة السلطان المنصور قلاوون التى وجدت على زوجها ، الملك السعيد بركة خان ، وجدا عظيما وتألمت لفقده ، ولم تزل باكية عليه حزينة ، ولم تتزوج بعده الى أن توفيت بعده بمدة

---

(٢٤٢) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 183.

(٢٤٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .

طويلة(٢٤٤) ، وزوجة السلطان الاشرف خليل بن قلاوون التى عمدت بعد مقتل زوجها الى جمع « نوائح كثيرة تنوح على السلطان ... وحضرت مع سائر الخدام والجوار الى تربته ... ومنهن جوق من النوائح المختلفة الأصوات ، وكل واحدة منهن تنوح بقول مختلف فى كلام النساء . فأقمن ست ليالى كل ليلة من العشاء الى السحر الى أن أقلقت الناس ، وأبكت العيون ، وأوجعت القلوب » . ولم تكتف بهذا بل التزمت بألا تترك حزنها ولا ما هى فيه من هذا الأمر حتى « ترى قاتل زوجها والموافق عليه مسمرا مشهورا(٢٤٥) » . كذلك لم تضن علينا المصادر المملوكية بأخبار النساء اللاتى كن يحتفلن بعودة أزواجهن اليهن بعد غياب طويل اذ جاء فى تاريخ المقريزى بصدد عودة الأمير ملكتمر الحجازى من سجنه بالاسكندرية عقب مقتل الأمير قوصون أن خوند تتر زوجة الأول استقبلت « زوجها الأمير ملكتمر بجواريها وخدامها ، ومغانيها تضرب

---

(٢٤٤) الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ ٢١ ، ورقة ٧٣ ؛ اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، جـ ٢ ، ص ٣٤ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ١٦٦ ؛ مرعى بن يوسف ، نزهة الناظرين ، ورقة ٦٩ ب ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٢ ؛ ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام ، ص ٢٩٧ .

(٢٤٥) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٨ ، ورقة ٨٧ .

بالدفوف والشبابات فرحا به ، وجارتها أختها امرأة قوصــون في عويل وبكاء وصــياح هي وجواريها وخدامها ، كما كان بالأمس لما انتصر قوصون على الحجــازى والأمراء ، في بيته الأفراح والتهاني،وفي بيت الحجازى البكاء والعويل...[٢٤٦] »

على أنه من الخطأ البين أن نرمى أغلب رجال هذه الطبقة بالأنانية وحب الذات والاقبال على متع الدنيا ، خاصــة وقد تضمنت كتابات هذا العصر بعض الاشــارات الى عــدد من الرجال ممن حاولوا التعبير عن عواطفهم نحو نسائهم وأبنائهم مثل الأمير قجليس النــاصرى الذى كان يحب زوجــته بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، محبة مفرطة وينفق عليها نفقات بالغة[٢٤٧] ، والأمير صارم الدين ابراهيم بن السلطان المؤيد الشيخ ، الذى أشار المقريزى الى حزنه الشــديد على موت زوجته خوند ستيته بنت الناصر فرج بن برقوق[٢٤٨] ، كما أشار السخاوى الى مدى الغم الذى أصــاب الســلطان

---

(٢٤٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥١٨ .

(٢٤٧) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤ .

(٢٤٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٣٧٦ ؛ ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ورقة ١٠٤ أ .

جقمق عقب وفاة حظيته سورباى الجركسية الذى « وجد عليها شديدا[٢٤٩] » .

ويحدثنا أيضا المؤرخ أبو الفداء عن حالة السلطان المنصور قلاوون عقب وفاة ابنه الصالح علاء الدين فيقول : « فوجد عليه السلطان والده وجدا عظيما[٢٥٠] » . ويذكر ابن اياس عند اشارته الى وفاة ابنة السلطان الظاهر خشقدم أنه « فى ذى الحجة ماتت للسلطان ابنة عمرها ست سنين من سريته خوند سورباى ، فتأسف عليها السلطان حتى أنه أبطل خدمة القصر فى يوم موتها[٢٥١] » ولعل فيما رواه لنا المؤرخ العينى عن الأمير قراسنقر خير مثال لننهى به حديثا عن تلك الفئة القليلة من رجال طبقة المماليك الذين عرفوا بحبهم لزوجاتهم ولأبنائهم اذ يقول : « وعندما كان قراسنقر فى ماردين تذكر

---

(٢٤٩) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٣١ ، ١٤٤ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٦٦ .

(٢٥٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ٧٤٤ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ ٤ ، ص ٢٢ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٧ ، ورقة ٧١٩ ؛ Urlich Hartmann, Mamlukenzeit, p. 24.

(٢٥١) محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص ١٦٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ١١٤ .

أهله وأولاده ... فبكى حتى أبكى الحاضرين[٢٥٢] » .

هذه الاشـارات لا تنفى أن مسئولية تربية الاطفـال وتنشئتهم كانت تقع فى غالب الأحيان على كاهل الأم التى كان عليها أن تعتنى بصغارهم وأن تسهر على راحتهم بينما اقتصر عمل الزواج على الانجاب فقط ، دون الاهتمام بما ينجبه من أطفال . حقيقة أن المصادر المملوكية قد ضنت علينا بالمعلومات الخاصة بتربية الأطفال على عصر سلاطين المماليك ، غير أنها قد تضمنت بعض الاشارات التى تعكس لنا بوضـوح مدى حب أمهات هذه الطبقة العسكرية لأولادهن ومدى خوفهن عليهم ، لدرجة اقدامهن فى بعض الاحيـان على اغتيـال من جرؤ على تهديد حياة فلذات أكبادهن . فقد روى مؤرخو تلك الفترة أن الخاتون بنت بركة خان قامت باغتيال الأمير بيليك ، حيث أعطته هناب فيه سكر وليمون مسموم عندما تبادر الى سمعها أنه يعمـل على عزل ابنها السـعيد بركة عن سـلطنة الديار المصرية[٢٥٣] . ونسمع أيضا عن خوند أم السـلطان الناصر

---

(٢٥٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٩ ، ورقة ٣٥٢ .

(٢٥٣) النويرى ، نهـاية الآرب ، جـ ٤ ، ورقة ٩٦ ب ؛ الذهبى ، تاريخ الاسلام ، جـ ٢١ ، ورقة ٤٦ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٩٤ ؛ أبو الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

محمد بن قلاوون التى حملت ابنها وقت أن كان صبيا وخرجت الى الكرك تاركة وراءها الديار والسلطنة لتوفر لأبنها شيئا من الهدوء بعيدا عن أعين المتآمرين على العرش ، وان كان هذا الهدوء لم يستمر طويلا اذ سرعان ما رحل اليها بعض الامراء بعد مقتل لاجين ليحملوا الناصر محمد الى الديار المصرية لاعادة تنصيبه من جديد سلطانا على البلاد ، عندئذ ظنت المسكينة أن هذا مكر منهم وأنهم أرادوا احضار ولدها لقتله « فأبت وامتنعت ولم تعلم أن الارادة الالهية حكمت له بالسعادة الطويلة » غير أنهم مازالوا بها حتى اجابتهم الى طلبهم وسلمت اليهم ولدها الناصر محمد(٢٥٤) . ونقرأ كذلك عن خوند زينب بنت خاصبك التي تركت الدور السلطانية بالقلعة وفضلت الذهاب الى السجن لتقيم مع ابنيها المؤيد أحمد وأخوه محمد ، بل لم تتردد لحظة فى السفر معهما الى الاسكندرية عقب اطلاق سراحهما لتقيم عندهما بالثغر . كما باشرت تمريض ابنها محمد هناك الى أن مات فأرسلت الى السلطان خشقدم تستأذنه فى حمل جثمانه الى القاهرة لتدفنه الى جوار أبيه السلطان الأشرف اينال ، فرسم لها بذلك(٢٥٥) . أما المؤرخ ابن اياس فيذكر لنا كيف أن خوند

---

(٢٥٤) العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٨ ، ورقة ١٧٦ .

(٢٥٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٦٧٨ .

أصل باى أم السلطان الناصر محمد بن قايتباى تخوفت على ولدها من خاله قانصوه ، وكانت المماليك قد التفت عليه ، « فأحضرت المصحف العثمانى بين يديها فى قاعة العواميد بالقلعة ؛ وحلفت عليه أخاها قانصوه وابنها الملك الناصر بوفاء كل كل منهما لصاحبه ...[٢٥٦] ، ويصور لنا مدى حزن خوند آسية على وفاة ولدها يحيى حتى كف بصرها[٢٥٧] ، كما يحكى لنا المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى ما فعلته سورباى عقب وفاة ابنتها فرح عندما نزلت الى قبرها وأقامت النواح عليها أياما رغم أن النزول الى المقابر لم يكن بعادة الخوندات « مادامت فى عصمة السلطان » ، ورغم ان هذه الابنة لم تكن قد تجاوزت الست سنوات[٢٥٨] .

ونجد أيضا فى كتابات العصر المملوكى صورة الأم التى تحب ابنها وتسرف فى هذا الحب وتحمى ابنها من عقاب الوالد العادل فقد روى بعض المؤورخون أن أنوك بن السلطان

---

(٢٥٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٢٥٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٢٥٨) محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص ١٦٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ١١٤ ؛ ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٥٩٣ .

الناصر محمد بن قلاوون كان قد لهى بحب أحد مغـانى هذا العصر وتدعى زهرة ، عن زوجته ابنـة بكتمر الساقى ، حتى علمت أمه خوند طغاى بذلك ، « فلشفقتها عليه ترخصت له ، وأمكنته من هواه ... فنم بعض مماليكه للأمير آقبغا بذلك ، فبلغه السلطان ، فدخـل الى الدور ، واسـتدعى أنوك وهم بقتله بالسيف ، فمنعته أمه وجواريه[٢٥٩] » . كما نجد صورة الأم التى تحاول أن ترجع الابن عن غيه بعد وفاة أبيه حتى لا يبدد سلطانه ، كما حدث عندما أساء السـلطان السـعيد بركة خان الى مماليـك والده المرحوم مما دفع بخـاله الأمير محمد الى الاستنجاد بأخته أم السلطان قائلا لها « أن ولدك هذا قد أساء التدبير واعتمد أسباب التدمير وأمسـك مثـل هؤلاء الأمراء ، وعول على الصغار الناقصى الآراء ، والمصلحة أن ترديه الى الصـواب لئلا يفسـد نظامه وتقصر أيامه ... فقامت والدته عليه وعنفته على سوء فعله وبينت له استحكام جهله ، حتى أفرج عن الامراء المذكورين وخلع عليهم[٢٦٠] » .

---

(٢٥٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ص ٤٩٢ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٤١٨ .

(٢٦٠) المقريزى ، السـلوك ، جـ ١ ، ص ٦٤٥ ؛ المقفى ، ورقة ١٧٤ أ ، العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢٧ ، ورقة ٦٢.٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٧ ، ص ٩٦ ؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ ٥ ، ص ٣٩٣ .

كذلك تتضمن كتابات هذا العصر بعض الاشارات الى الأم التى لم تتردد فى أن تثأر لابنها من قتلته ، اذ جاء فى سلوك المقريزى أنه « فى ليلة الجمعة أول شهر رمضان من سنة ٧٤٢ / ١٣٤١ نزلت أم السلطان المنصور أبى بكر من القلعة ، ومعها مائة خادم ومائة جارية لعمل العزاء ، فدخلت بيت جركتمر بن بهادر ونهبت ما فيه ، وألقته الى من تبعها من العامة ، ففرت حرم جركتمر منها حتى نجت من القتل[٢٦١] » الذى كان ينتظرها على أيدى هذه الأم الثائرة التى سيطرت عليها فكرة الانتقام .

وكثيرا ما نقرأ فى كتب العصر المملوكى عن الاحترام الزائد الذى تمتعت به الأم المملوكية من قبل أبنائها ، اذ يروى أحد المعاصرين أن السلطان الأشرف شعبان كان يحب أمه خوند بركة حبا شديدا ، وكان كثيرا البر لها الى الطرف الأقصى ، بحيث أنه كان لا يمكنه مخالفتها[٢٦٢] ، وعمر لها بالتبانة خارج باب زويلة مدرسة فى غاية الحسن ، قليلة النظير[٢٦٣] ، — لازالت قائمة حتى يومنا هذا دليلا على وفاء

---

(٢٦١) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٩٨ .

(٢٦٢) ابن الشحنة ، الذين من كتاب المنهل ، جـ ٣ ، ورقة ٧ ب ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٤١ .

(٢٦٣) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .

الأبناء لأمهاتهم ، كما ذكر لنا آخر ما فعله السلطان الصالح صلاح الدين مع أمه خوند قطلوملك عندما عمل « مهما طبخ فيه الطعام بيده ، وعمل لها جميع ما يعمل فى الموكب السطانى، ورتب لها الخدام والجوارى ، ما بين جمدارية وسقاة ، ومنهم من حمل الغاشية والقبة والطير ، وأركبها فى الحوش بزى الملك وهيئة السلطنة . وخلع وأنفق ، ووهب شيئا كثيرا من المال . ثم شد فى وسطه فوطة ، ووقف فطبخ الطعام فى هذا المهم بنفسه ، ومد السماط بين يديها بنفسه ، فكان مهما يخرج عن الحد فى كثرة المصروف ...[٢٦٤] » ونسمع أيضا عن ثورة السلطان فرج بن برقوق عقب وفاة أمه خوندشرين واتهم جماعة من الخوندات « بأنهم سحروها حسدا وبغضا لأنها سارت سيرة حسنة جميلة[٢٦٥] » .

والواقع أن الحريم السلطانى كان على عصر المماليك أعظم ميادين السحر . ومرجع ذلك فى رأينا الى تعدد زوجات السلاطين ، فأخذت كل منهن تسعى لتكيد لغيرها وتظهر عليها.

---

(٢٦٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٦٢٩ .

(٢٦٥) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ١ ، ص ٢٨١ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ١٢ ، ص ٧٠ .

فاذا مات ابن السلطان أتهمت أمه احدى ضررها بأنها سحرت له[٢٦٦] واذا توفيت خوند الكبرى اتهم السلطان خوند الثانية بأنها سحرت لها[٢٦٧] . واذا اعترى السلطان مرض قامت أمه لتتهم احدى زوجاته بأنها سحرته وكثيرا ما كانت تعمل على ايقاع الحوطة على موجودها وتقوم بضرب جواريها ليعترفن[٢٦٨] . أما عامة النساء فى ذلك العصر فقد حاولوا أيضا اتقاء شر السحر بكثير من العادات والأفعال المتنوعة التى كان يعملها النساء فى بيوتهن من اطلاق البخور واحراق الأشياء والصور يوم الجمعة ساعة الصلاة[٢٦٩] ، تلك العادات التى لا يزال بعضها قائما بين ظهرانينا حتى اليوم .

بيد أنه فى الوقت الذى أفاضت فيه المصادر المملوكية عن مدى احترام الأبناء لامهاتهم فانها قد ضنت علينا بمعلوماتها بصدد العلاقة بين الأم وابنتها وكل الذى وصلنا عن هذه العلاقة لا يتعدى تلك السطور القليلة التى سجلها لنا المؤرخ

---

(٢٦٦) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢١٨ .

(٢٦٧) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٣١ .

(٢٦٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ورقة ٦٦٨ ؛ سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٤٢ .

(٢٦٩) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٥٦ .

ابن تغرى بردى عن نزول خوند زينب بنت خاصبك من القلعة الى منزلها فى بولاق لمرض أصابها بمصاحبة ابنتيها زوجة الدوادار الكبير وزوجة الدوادار الثانى حيث أقمن عندها حتى يوم شفائها[٢٧٠] الأمر الذى يشير بما لا يقبل الشك أن الابنة كانت أيضا على عصر سلاطين المماليك قريبة الى قلب الأم ، وأنها لم تكن لتتردد فى ترك بيتها وزوجها وأبنائها لتكون بالقرب من هذه الأم وقت شدتها ومرضها تلك الصورة التى لا نزال نشاهدها حتى اليوم فى مجتمعنا الحديث .

هذا عن المماليك ، أما عن طبقات الشعب الأخرى من علماء وتجار وعوام وغيرهم ، فيبدو أن الطابع العام للأسرة الاسلامية لم يتغير كثيرا فى ذلك العصر ، سواء من ناحية مركز الأب ونفوذه على زوجته وأبنائه أو احترام الزوجة لزوجها والأبناء لوالدهم ، بدليل ما يرويه الفقيه المغربى ابن الحاج من أن العادات جرت فى ذلك العصر أن الزوجة والأبناء لا يشاركون رب الأسرة فى الأكل من وعاء واحد ، بل « للرجل طعام خاص به وزبدية خاصة به وكوز خاص به[٢٧١] » ، وما جاء فى القصص المصرى من ألف ليلة وليلة عن الحياة العائلية

---

(٢٧٠) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٢٦ .

(٢٧١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢١٦ .

وعن معـاملات الزوج لزوجه ، وعن حب الأم وعطفها ، وعن سـلطة الأب فى البيت ، وعن مدى احترام الرجل لزوجته ، اذ نرى أن الأب فى قصة قمر الزمان عندما يعزم على تجهيز متجر لولده ، لا يفعل شيئا قبل أن يستشير زوجته فى الأمر ، « لأنه يدين لهـا بالحـب والاحترام[٢٧٢] » • وعلى الرغـم من قلة الاشارات التى تتحدث عن الحياة العائلية عند الشعب المصرى ، فاننا نلاحظ أن أغلبها يعبر دائما عن الثناء والتقدير من جانب الزوج لزوجته ، فالشعرانى وهو من رجال الدين المحافظين ــ لا يتمالك شعوره نحو زوجته فيثنى عليها ثناء فياضا[٢٧٣] وعمر ابن عيسى أحد فقهاء صعيد مصر لم يستطيع أن يخفى حزنه على وفاة زوجته « وكان يتأوه كثيرا ونظم عدة قصـائد ، ولم يزل كثيبـا الى حين وفاته[٢٧٤] » • ويحـكى المؤرخ ابن حجر فى هذا المعنى أن بعض العوام قد شنق نفسـه عام ١٤٢٢/٨٢٩ قهرا من زوجته وكان طلقها وهو يحبها فاتصلت بغيره ووكلته

---

(٢٧٢) سهير القلماوى ، ألف ليلة ، ص ٣١٩ ؛ ألف ليلة وليلة ، جـ ٤ ، ص ٢٤٤ .

(٢٧٣) الشعرانى ، لواقح الأنوار ، ص ٤٣ ، ٢٨٧ ؛ زكى مبارك ، التصوف ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٢٧٤) الأدفوى ، الطالع السعيد ، ص ٤٥٤ .

فيه ، فقتل نفسه[٢٧٥] » ، كما يحدثنا عن هيام محمد بن نجم الدين بن الخواجا على بزوجته سمراء ، الذى فاق حبه لها حب قيس لليلى » ،حتى قال عنه المؤرخ « وهو أخر من عرفنا من المتيمين » بل لعله من المناسب أن نورد هنا بعضا من شعره فى سمراء هذه بعد أن هجرته لتتزوج برجل من العوام :

سلو سمراء عن كربى وحزنى
وعن جفن حكى هطال مزن
سلوها : هل عرها ما عرانى
من الجن والهواتف بعد جن ؟
سلوا : هل هزت الأوتار بعدى
وهل غنت كما كانت تغنى ؟

ويقول فى آخرها :

سأشكوها الى مولى حكيم
ليعفو فى الهوى عنها وعنى[٢٧٦]

---

(٢٧٥) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٢ ، ورقة ١٢٠ ب ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٧ .

(٢٧٦) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٢ ، ورقة ٩١ ب ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

ورغم هذا فمن الصعب أن نجزم بأن الرجـل فى العصر المملوكى كان دائم الحب والاحترام لزوجتـه ، خاصـة وأن المصادر تحتوى على بعض الاشارات التى يفهم منها أن الزوج كان يعامل زوجته فى بعض الأحيان بوحشية وقسوة الى درجة تصل الى الضرب والأيذاء • فقد أشار أحد فقهاء هذا العصر أن زوجة صديق له شكت له من أخلاق صديقه وأخبرته أنه « كسر لها معصـمها[٢٧٧] » • كما وجدت أيضـا أمثلة قليلة لرجال من هذا العصر ـ لا سيما من طائفة التجار ـ ضعفوا أمام نسائهم ، « فلا يقدر أحدهم على مخالفة زوجته أبدا[٢٧٨] » وتبدو هذه الصورة واضحة فى قصة معروف الاسـكافى من قصص ألف ليلة وليلة ، اذ كانت له « زوجة اسمها فاطمة والناس يطلقون عليها لقب (العورة) لأنها كانت فاجرة ماكرة خبيثة قليلة الحياء ، محبة للشر والفتنة ، تعامل زوجها أسوء معاملة ، وفى كل يوم تسبه وتلعنه ألف مرة ، ولا تتورع عن ضربه ، حتى صار يخشى شرها وأذاها وكل ما يربحه من عمله سـواء أكان قليلا أم كثيرا يصرفه عليها • لكنها كانت لا تشكر على الكثير وتثور عليه اذا أعطاها القليل فتنغص عيشته وتجعـل

---

(٢٧٧) الادفوى ، الطالع السعيد ، ص ٢١٤ .

(٢٧٨) زكى مبارك ، التصوف ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ .

ليلته أسود من صحيفتها » ، وهى كما قال فى حقها الشاعر :

كم ليـــلة بت لدى زوجتى
فى أشـــأم الأحـوال قضـــيتها

يا ليتنى عنـــد دخولى بهـــا
أحضرت ســما ثم أعطيتهـــا(٢٧٩)

ويروى لنا السخاوى فى ترجمة الفقيه محمد بن أبى بكر شمس الدين كيف أنه تزوج بنفيسة زوجة الأبدى وكيف قاس منها نـــكدا عظيما حتى أنه كان يقـول فى أغلب الأحيـــان : « يا سيدتى نفيســـة خلصينى من نفيسة(٢٨٠) » . ويحـــكى الشعرانى أن شيخه على الخواص كان كثيرا ما يقول : أنه منذ زواجه بابنة عمه منذ خمسة وسبعين عاما وهو لا يتذكر أنه قضى معها ليلة واحدة فى سلام ووئام ويصفها بشراسة الخلق وحدة الطبـــع(٢٨١) . وحسبنا أن نشـــير فى النهاية الى ذلك الوصف الطريف الذى سجله لنا ابن دنيال الموصلى عنـــدما أراد أن يصف حاله مع زوجته التى حاولت شأنها شأن بعض

---

(٢٧٩) ألف ليلة وليلة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٨

(٢٨٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٧ ، ص ٢٠٣ .

(٢٨١) الشعرانى ، لطائف المنن ، جـ ١ ، ص ٢٣٨ .

زوجات هذا العصر أن تسلبه نفوذه وسلطانه كرب للأسرة :

بك أشــكو من زوجة صـــيرتنى
غائبـا بين ســائر الحضـــار

دار رأسى عن بــــاب دارى
فبالله أخبرونى ياسادتى أين دارى[٢٨٢]

والحديث عن الأسرة المصرية وعن العلاقات الزوجية زمن سلاطين المماليك يجرنا الى الاشارة الى ظاهرة هامة تبز بعض القصص المصرى من ألف ليلة وليلة ، ونعنى ظاهرة الخيـانة الزوجية ، اذ كثيرا ما تصور هذه القصص بعض زوجات هذا العصر وقد أقدمن على خيـانة أزواجهن مع عشـاقهن من الشباب[٢٨٣] ، تلك الظاهرة التى ترجع فى رأينا الى زواج الفتاة فى سن مبكرة برجل مسن ، قد يكون فى عمر أبيها ، الأمـر الذى يفضى بها فى النهاية الى طريق الخيانة الزوجية مع شاب من عمرها لعلها تجد معه شيئا مما افتقدته لدى هـذا الزوج

(٢٨٢) ابن دانيال ، طيف الخيال ، ص ١٢٣ .

(٢٨٣) Mardrus, Le Livre des mile nuits, VI, pp. 403, 414.

الطاعن فى السن[٢٨٤] . ولنترك الشعرانى يروى لنا ما ذكرته له احدى سيدات هذا العصر فى هذا الصدد « أخبرتنى امرأة دينة مصلية قائلة : انى أكره الخروج للسوق فقلت لها : لماذا ؟ فقالت : لأنى أنظر الى الأشكال الحسنة فتميل اليها نفسى ، فأرجع لا أقدر أنظر فى وجه زوجى . قالت : دخلت مرة سوق الوراقين فرأيت شابا فأخذ بمجامع قلبى فرجعت فوالله ما رأيت زوجى فى عينى الا كالقطرب (ذبابة زرقاء) أو كالغـول أو كالعفريت أو كالبقرة . وكما أن الرجل اذا رأى المرأة الحسناء مالت اليها نفسه ، فكذلك المرأة اذا رأت الشاب الأمرد الجميل تروح نفسها اليه ضرورة . قالت ورأيت مرة انسانا من الطاق وزوجى عندى ، وصرت أنظر الى حسن شكل ذلك الانسان وحسن لحيته ووجهه وعيونه ، وأنظر الى زوجى والى تشعيث شعر لحيته وكبر أسنانه وأنفه وعمش عينيه وخشونة جلده وملبسه وفظاظته وتغير رائحة فمه وابطه وقبح كلامه ، فما كنت الا فتنت بذلك الانسان . قالت : ثم انى تبت الى الله تعالى عن الخروج مطلقا لا لحمام ولا لزيارة ولا لغيرها فصار زوجى فى عينى كالعروس[٢٨٥] » . لذلك لا غرابة ان طالب فقهاء هـذا

---

(٢٨٤) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 194.

(٢٨٥) الشعرانى ، لواقح الأنوار ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ — ١٧٤ .

العصر الأزواج بمنع المرأة من الخروج الا لضرورة قصوى ، لتكون على حد تعبير أحدهم « راضية بك ، لا التفات لها الى غيرك » .

واذا كان بعض القصص المصرى من ألف ليلة وليلة يظهر الزوجة دائما بمظهر الخائنة التى تبيع عرض زوجها مع عشيق لها ، فان هناك أيضا من هذا القصص ما يشير الى مدى اخلاص الزوجة لزوجها والى مدى تفانيها فى حبه وفى خدمته . وحسبنا أن نشير فى هـذا المجال الى ما جاء فى قصة عـلاء الدين أبو الشامات من أن زوجة شمس الدين التاجر ، كانت تعرف ميعاد مجيىء زوجهـا ، فتغتسـل وتصلح من شـأنها اسـتعدادا لاستقباله[(٢٨٦)] .

والواقع أن الرجل قد اعتاد فى هذا العصر أن يقضى معظم نهاره فى عمله خارج المنزل حتى اذا انتهى من عمله عند غروب الشمس عاد الى منزله « حيث يتصافى مع زوجته ويتم نهـاره فى بيته[(٢٨٧)] » . أما الزوجة فتقوم بشئون بيتها ، ثم ترتدى الثياب الرقيقة المذهبة المصنوعة من الحرير الفاخر ، لتظهر

---

(٢٨٦) Mardrus, Le Livre des mille nuits, III, p. 142.

(٢٨٧) سيرة الظاهر بيبرس ، ص ٦٢ .

أمام زوجها فى صورة كلها فتنة واغراء[٢٨٨] .

وجرت العادة فى هذا العصر « أن الزوجة اذا جاءت الى الفراش لتنام مع زوجها تأخذ شيئا يعطيه لها فى الغالب غير نفقتها بحسب حاله وحالها لحق الفراش على ما يزعمن ... » وذكر الفقيه المغربى ابن الحاج أن هذا التصرف منكر وشبهه بالزنا[٢٨٩] . وتفسير هذه العادة يرجع فى رأينا الى أسباب اقتصادية ، لا سيما وأن بعض الأزواج قد عرفوا بالبخل والتقتير بدليل ما درج عليه أغلب فقهاء هذا العصر من نصح الرجال بعدم التقصير فى الانفاق على الزوجات والأبناء ولنذكر هنا احدى العبارات الشهيرة التى سجلها لنا الشعرانى فى هذا الصدد اذ يقول : « وأخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن تنفق على زوجاتنا وعيالنا وبناتنا ونؤدبهن ونصبر عليهن فى النفقة . وقد قالوا أقبح من كل قبيح صوفى شحيح ، فاعمل يا أخى على تحصيل النفقة عليك وعلى عيالك كل يوم بيوم ، ولا تدخر شيئا الا لعذر شرعى والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه[٢٩٠] » . لذلك فليس من

---

(٢٨٨) Schefer, Voyage magnifique, p. 211.

(٢٨٩) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ص ١٦٩ .

(٢٩٠) الشعرانى ، لواقح الأنوار ، جـ ٢ ، ص ٣٥ — ٣٦ .

المستبعد أن تكون زوجات هذا العصر قد لجأن الى هـذه الحيلة ، حتى يستطعن الحصول على بعض من المال يساعدهن فى قضاء بعض حوائجهن وشراء ما يلزمهن من الملابس وأدوات الزينة التى عرفت على عصر سلاطين المماليك بأسعارها المرتفعة وخاصة عندما يكون الزوج بخيلا شحيحا(٢٩١) .

وقبل أن نتعرض لدور الأم المصرية فى تربيـة أولادها والأسلوب الذى اتبعته فى تعليمهم . ينبغى أن نشير هنا الى الاحتفالات الخاصة « بالنفاس والولادة » لما لها من أهمية كبيرة فى العصر المملوكى ، اذ جرت العادة أن يتفق قبل الوضع مع الداية على أجـر معلوم ، حتى لا يحـدث ــ كما يقول ابن الحاج ــ نزاع « وكلام كثير » حول تحديد أجرها بعـد الوضع(٢٩٢) ، كما يشير هذا الفقيه المغربى الى دايات هـذا العصر حين يقول : « ومنهن من اذا تعسرت الولادة على المرأة أخذن لباب الخبز ويجعلن فى قلبه زبل الفأرة ويطعمنها ذلك من حيث لا تشـعر ويعللن ذلك بزعمهن أنه يهـون عليها الولادة ...(٢٩٣) » فاذا وضعت الأم مولدها أقبلت النسـاء

---

(٢٩١) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pp. 195-196.

(٢٩٢) ابن الحاج ، المدخل : جـ ٣ ، ص ٨٣ ٢ .

(٢٩٣) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٣ ، ص ٢٨٤ .

يزغردن ويرفعن أصواتهن بذلك مع ضرب الدفوف والرقص، واللهو واللعب ، فى حين تدوى المزامير والأبواق على الأبواب. « لتعمل مافى وسعها من الهرج والشهرة[٢٩٤] » . وعند قطع سرة المولود يجتمع حوله جمع كبير من صغار الأطفال بزعم أن من لا يحضر من الصغار عند قطعها ودخل بعد ذلك تحول عيناه أو يبكى كثيرا فى طفولته . أما السكين التى تقطع بها سرة المولود فتبقى عند رأسه مادامت أمه جالسة عنده ، فاذا قامت حملتها معها . بل تظل تفعل ذلك أربعين يوما حتى لا يصيبها شىء من الجان[٢٩٥] . ويتضاعف الفرح اذا كان المولود ذكرا ، اذ كان الرجل كثيرا ما يركز كل آماله عندما تحمل زوجته أن يكون المولود ذكرا « يحيى به ذكره وينشرح له صدره[٢٩٦] » فاذا تم له ما تمناه تعين عليه أن يقيم « وليمة مولود ذكر[٢٩٧] » يدعو اليها الأهل والأصدقاء ويفرط فى عمل ألوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التى تضاعف

---

(٢٩٤) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٨ .

(٢٩٥) ابن الحاج ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٢٩٦) بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ورقة ٣٠٤ .

(٢٩٧) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ورقة ٥٦٠ .

لأم المولود فى هذه الحالة[٢٩٨] . ويفهم من قصص ألف ليلة وليلة أن الأفراح كانت تستمر عادة سبعة أيام لا ينقطع طوالها وفود المهنئين والمهنئات ، وكل من جاءت للتهنئة جددوا لها اللهو واللعب والرقص[٢٩٩] .

وعندما تحل الليلة السابقة ، التى عرفت «بليلة السبوع»، كانوا يضعون عند رأس المولود على حد تعبير ابن الحاج ، الختمة واللوح والدواة والقلم ورغيف من الخبز وقطعة من السكر . أما اذا كان أهل المولود من ذوى اليسر والسعة ، فكانوا يعملون رغيفا كبيرا أو « أبلوجة من السكر » ويضعونها مع طبق من الفاكهة ، وقفة من النقل والشمع عند رأس المولود . وفى صبيحة السبوع يقومون بتفريق كل ذلك ، زاعمين أنه بركة لمن يأخذه وأنه ينفعه من الصداع ، كما يزعمون أن الملائكة تكتب بالدواة والقلم ما يجرى على المولود فى عمره الى حين وفاته[٣٠٠] .

---

(٢٩٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤٣٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٣١٩ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٧ .

(٢٩٩) Mardrus, Le Livre des mille nuits, III, p. 147.

(٣٠٠) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٣ ، ص ٢٩٠ .

واعتاد الناس أن يحتفلوا بيوم السبوع احتفالا كبيرا ، فتلبس أم المولود الثياب الجديدة الجميلة ، وتطوف بأنحاء المنزل فى موكب مهيب ، تحيط بها الشموع من كل جانب ، والداية أمامها تحمل المولود ، وأمام الداية امرأة أخرى معها صحن به شيء من الملح المخلوط بالكمون تنشره فى المنزل يمينا ويسارا . هذا عدا احراق نوع من البخور « مخصوص بالولادة » يقال أنه كان يحمى من الأمراض «والعين والجان» . ولابد أيضا فى ذلك اليوم من عمل ألوان معينة من الطعام كالزلابية والعصيدة ، وتفريقها على الأهل والجيران والمعارف[٣٠١] كذلك جاء فى بعض القصص المصرى من ألف ليلة وليلة أن والد المولود لم يكن يستطيع أن يرى زوجته قبل اليوم السابع ، اذ كان عليه أن ينتظر حتى حلول يوم السبوع ليدخل اليها ويهنئها بسلامة الوضع ويشترك معها فى اختيار اسم المولود ، وكثيرا ما ترك للأم حرية اختيار الاسم اذا كان أنثى ، أما اذا كان المولود ذكرا فغالبا ما كان الأب يختار الاسم دون مشورة أحد[٣٠٢] .

---

(٣٠١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٣ ، ص ٢٩١ .

(٣٠٢) Mardrus, Le Livre des mille nuits, III, pp. 147-148.

ويفهم أيضا من كتابات بعض المعاصرين أن العـــادة أوجبت على والد المولود أن يجدد كســوة أهل المنزل جميعا وكذلك كل ما يحتاجه ، « حتى الحصير لابد من تجـديدها الى غير ذلك مما اعتادوه(٣٠٣) •

وتمسك الناس بعصر المماليك بهذه العوائد التى لازلنا نرى بعض صورها فى مجتمعنا المصرى الحديث « حتى تداين بعضهم لها(٣٠٤) » • ومن الملاحظ أيضا أن أهل العلم والمشيخة لم يستطيعوا أن يخالفوا بقية طبقات الشعب فى ذلك • ويكفى أن نشير هنا الى أن السخاوى أحد فقهاء هذا العصر يذكر عن نفسه عنـــدما رزق مولودا سنة ٨٥٥/١٤٥١ أنه أقام وليمـــة كبيرة دعا اليها الفقــراء والصلحاء وطلبة العــلم وغيرهم ممن « توسم فيهم الخير(٣٠٥) » •

أما عن دور الأم المصرية فى تربية أبنائها ، فلا نجد شيئا عنه فى المصادر التاريخية نتيجة لانصراف أغلب مؤرخى هذه الفترة الى اخبـــار الطبقة الحاكمة ونعنى بها طبقة المماليك ،

---

(٣٠٣) ابن الحاج ، المدخل جـ ٣ ، ص ٢٩٣ •

(٣٠٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٣ ، ص ٢٩٣ ؛ ســعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٢٤ •

(٣٠٥) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢٤٩ •

فالتاريخ كان فى تلك العصــور كما هو معــروف لنا ربيب السلاطين والامراء والقصور والمدن ، أما فيما عدا ذلك من أفراد الشعب وعامته فكان نصيبه الأهمال وحسبنا ما يعترف به مؤرخ معروف ـ مثل ابن تغرى بردى ـ عندما يقــول عن أحد الأفراد « وقد أضربنا عن شرح ما حدث له لأنه لم يكن من أعيان الناس لتشكر أفعاله أو تذم !(٣٠٦) » •

ومع ذلك فكثيرا ما نجد صورة الأم المصرية التى اعتادت أن تحب ابنها وتسرف فى هذا الحب ممثلة أحسن تمثيــل فى بعض القصص المصرى من ألف ليلة وليلة • بل كثيرا ما نراها تحاول أن تحميه من عقاب أبيه وتغفر له كل هفوة مهما عظمت وقد تذهب الى الكذب فى بعض الأحيان لتخلصه من هــذا العقاب(٣٠٧) •

ولنــدع للقلم العنان ليعطينا صــورة كاملة عن أم نور الدين وما قامت به لحماية ابنها من عقاب أبيه العادل « ••• ولم يزل سائرا حتى وصل الى بيت والده فقامت له أمه وقالت له : ياولد ما سبب غيابك الى هذا الوقت ، والله أنك قد شوشت

---

(٣٠٦) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٤٤ .

(٣٠٧) سهير القلماوى ، ألف ليلة ، ص ٣١٩ .

على وعلى والدك لغيابك عنا ، وقد اشتغل خاطرنا عليك ، ثم أن أمه تقدمت اليه لتقبله فى فمه فشمت منه رائحة الخمر ، فقالت : يا ولدى كيف بعد الصلاة والعبادة صرت تشرب الخمر وتعصى من له الخلق والأمر فبينما هما فى الكلام ، اذا بوالده قد أقبل ثم أن نور الدين ارتمى فى الفراش ونام فقال أبوه : نام نور الدين هكذا فقالت له أمه : كان رأسه أوجعته من هواء البستان فعند ذلك تقدم والده ليسأله عن وجعه ويسلم عليه فشم رائحة الخمر وكان لا يحب من يشرب الخمر فقال له : ويلك ياولدى هل بلغ بك السفه الى هذا الحد حتى تشرب الخمر ... ووقع الأرض مغشيا عليه واستمر فى غشيته ساعة فرشوا عليه ماء الورد ، فلما أفاق من غشيته أراد أن يضربه ، فحلف بالطلاق من أمه أنه اذا أصبح الصباح لابد من قطع يده اليمنى فلما سمعت أمه كلام والده ضاق صدرها وخافت على ولدها ولم تزل تدادى والده وتأخذ بخاطره الى أن غلب عليه النوم ، فصبرت الى أن طلع القمر وأتت الى ولدها وقد زال عنه السكر فقالت له يانور الدين : ما هذا الفعل القبيح الذي فعلته ... لقد حلف بالطلاق أنه اذا أصبح الصباح لابد أن يقطع يدك اليمنى فندم نور الدين على ما وقع منه ... فقالت له أمه : ياولد ان هذا الندم لا ينفعك دائما ينبغى لك أن تقوم

في هذا الوقت وتهرب وتطلب النجاة لنفسك وتختفى عند خروجك حتى تصل الى أحد من أصحابك وانتظر ما يفعل الله فانه يغير حالا بعد حال ثم أن أمه فتحت صندوق المال وأخرجت منه كيسا فيه مائة دينار وقالت له : ياولدى خذ هذه الدنانير واستعن بها على مصالح حالك فاذا فرغت منك ياولدى فأرسل أعلمنى حتى أرسل اليك غيرها ، واذا راسلتنى فارسل الى أخبارك سرا ولعل الله أن يقدر لك فرجا وتعود الى منزلك ، ثم أنها ودعته وبكت بكاء شديدا ما عليه مزيد ...(٣٠٨) » .

وتمدنا هذه القصص أيضا بتفاصيل دقيقة عن الأم التى تحاول أن ترجع الابن عن غيه بعد موت أبيه ناصحة له من التمادى فى اللهو واتلاف المال بعد رحيل الأب ، وقد أحست أنها الوصية على أمره ، بل أنها كثيرا ما كانت تعطيه من مالها الخاص بعد اتلاف ليصلح من حاله ، فهذه أم أبى الحسن الخرسانى تعطيه من المال مرات وتحاول أن تكون هى الوصية على أمره حتى ينصلح حاله ، ولندع أبى الحسن يروى لنا كيف مدت له هذه الأم يدها حتى خرج من محنته بعد أن أضاع كل شيء « فاشتغلت باللذات وأكلت وشربت ، ثم اتخذت الأصحاب والأصدقاء وكانت أمى تنهانى عن ذلك وتلومنى عليه

---

(٣٠٨) الف ليلة وليلة ، جـ ١ ، ص ٦٥ .

فلم أسمع منها كلاما حتى ذهب المال جميعه وبعت العقار ولم يبق لى شىء غير الدار التى أنا فيها وكانت دار حسنة ... فقلت لأمى : أريد بيع الدار فقالت : ياولدى ان بعتها تفتضح ولا تعرف لك مكانا تأوى اليه فقلت هى تساوى خمسة آلاف دينار ، فاشترى من جملة ثمنها دار بألف دينار ثم أتجر بالباقى. فقالت : أتبعينى هذه الدار بهذا المقدار قلت : نعم ، فجاءت الى طابق وفتحته وأخرجت منه اناء من الصينى فيه خمسة آلاف دينار فتخيل الى أن هذه الدار كلها ذهب فقالت لى : ياولدى لا تظن أن هذا المال مال أبيك ، والله ياولدى انه من مال أبى وكنت قد ادخرته لوقت الحاجة اليه ، فانى كنت فى زمن أبيك غنية عن الاحتياج الى هذا المال . فأخذت المال منها ... وعدت لما كنت عليه من المأكل والمشرب والصحبة ، حتى نفذت الخمسة آلاف دينار ولم أقبل من أمى كلاما ولا نصيحة ، ثم قلت لها مرادى أن أبيع الدار فقالت ياولدى قد نهيتك عن بيعها لعلمى أنك محتاج اليها فكيف تريد بيعها ثانيا؟ فقلت : لها لا تطيلى على الكلام فلابد من بيعها ، فقالت : بعنى اياها بخمسة عشر ألف دينار بشرط أن أتولى أمورك بنفسى ؛ فبعتها لها بذلك المبلغ على أن تتولى أمورى بنفسها ، فطلبت وكلاء أبى وأعطت كل واحد منهم ألف دينار وجعلت المال تحت يدها والأخذ والعطاء معها وأعطتنى بعضا من المال لاتجر فيه ؛

وقالت لى : أقعد أنت فى دكان أبيك فعملت ما قالت أمى ... وجئت الى الحجرة التى فى سوق الصيارف وجاء أصحابى وصاروا يشترون منى وأبيع لهم ما طاب لى الربح وكثر مالى ، فلما رأتنى أمى على تلك الحالة الحسنة أظهرت لى ما كان مدخرا عندها من جوهر ومعدن ولؤلؤ وذهب ثم عادت لى أملاكى التى كان وقع فيها التفريط وكثر مالى كما كان ...(٣٠٩)»

وتعكس لنا هذه القصص أيضا بعض دقائق خاصة بالحياة العائلية على عصر سلاطين المماليك ، وهى عناية الآباء والأمهات بتربية أبنائهم وتعليمهم كما يتضح من قصة قمر الزمان ، اذ صارت الأم تقرىء بنتها والرجل يقرىء ولده حتى حفظا القرآن ، وتعلما الخط والحساب والفنون والآداب من أبيهما وأمهما ، ولم يحتاجا الى معلم(٣١٠) . وجاء أيضا فى بعض المصادر الأخرى أن المولود اذا ولد فى بيت يسر وثراء ، كانت تتسلمه المراضع والدادات حتى يشب وعندئذ يقوم بتأديبه وتعليمه أحد مؤدبى الأطفال(٣١١) . ويبدو أن هذا

---

(٣٠٩) ألف ليلة وليلة ، جـ ٤ ص ٢٣١ .

(٣١٠) ألف ليلة وليلة ، جـ ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٣١١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٥ ، ص ٨٠ ؛ السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٥٨ .

المؤدب قد تمتع باحترام ومهابة تفوق فى بعض الأحيان مهابة الوالدين فى نفس الطفل لدرجة أن اعتادت بعض الأمهات ، كما يروى أحد المعاصرين ، أن يلجأن الى مؤدب الطفل لشكوى أبنائهن اذا أخلوا بالأدب فى المنزل[٣١٢] . لذلك اهتم المحتسب فى ذلك الوقت بمعلمى الصبيان وبمعلمات البنات وكان يعرف عليهم عريفا ثقة له دين ، يمنعهم من التعلم فى المساجد ؛ لأن الرسول الكريم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين ، لأنهم يسودون حيطانها ، وينجسون أرضها ... ، بل يتخذون للتعليم حوانيت فى أطراف الأسواق ، أو على الشوارع ، ولا يعلمون فى بيوتهم ، ولا فى الدهاليز . وألزم المحتسب أيضا تلك الفئة أن تبدأ بتعليم الصغار السور القصار من القرآن . بعد حذقة بمعرفة الحروف ، وضبطها بالشكل ... ثم يعرفوهم عقائد السنين ، ثم أصول الحساب ، وما يستحسن فى المراسلات والأشعار ، دون سخيفها ومسترذلها . وفى الرواح يأمروهم بتجويد الخط ، ويكلفوهم بعرض ما أملوه عليهم حفظا غائبا . ومن كان عمره سبع سنين أمروه بالصلاة فى الجماعة ... ويأمروهم ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة ، والسلام عليهما ، وتقبيل أياديهما عند الدخول عليهما ، ويضربوهم على اساءة الأدب ، والفحش من الكلام ، وغير

---

(٣١٢) الشربينى ، هز القحوف ، ص ٣١ .

ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشريعة ، مثل اللعب بالكعاب ، والبيض والنرد وجميع أنواع القمار . كما منع المحتسب تلك الفئة من المعلمين والمعلمات من ضرب الصغار بعصى غليظة تكسر العظم ، ولا رقيقة تؤلم الجسم بل تكون وسطا ، وأوصاهم باتخاذ مجلد عريض السير وأن يعتمدوا بضربه على اللوايا والأفخاذ ، وأسافل الرجلين ... كذلك حرم المحتسب على المعلمين والمعلمات استخدام أحد من الصبيان فى حوائجه وأشغاله التى فيها عار على آبائهم ، ولا يرسلوا صبيا مع امرأة لكتب كتاب ، ولا مع رجل لكتب قصة ، ولا رسالة فان جماعة من الفساق يحتالون على الصبيان بذلك .
ومن الطريف أن نلاحظ أن محتسب العصر المملوكى قد أوصى المعلمين باطعام الصغار وقت جوعهم وحثهم على منع الصبيان من حفظ أشعار ابن الحجاج ، صاحب الديوان الضخم الملىء بشعر الخلاعة والمجون والفسق ، والنظر فيه وضربهم على ذلك ، وكذلك ديوان صريع الدلاء فانه لا خير فيه ، وذلك لميله الى المذهب الشيعى الذى هو على النقيض تماما من المذهب السنى ، مذهب سلاطين المماليك . ولم ينسى المحتسب أيضا أن يوصى معلمات البنات بمنع بالغات البنات من الفواحش ومن القصائد والأشعار والكلام الذى لا خير فيه ، ومنعهن أيضا

من زينتهن وبهرجتهن يوم عيـــدهن فى البطالة[٣١٣] . لذلك لا غرابة ان احتوت المصادر المملوكية على الكثير من الاشارات التى تدل على مدى الاحترام التى تمتعت به الأم المصرية من قبل أبنائها ، نتيجة لهذه التربية الجادة ، ولا غرابة أيضا أن جاء فى بعض قصص ألف ليلة وليلة أن الأبناء كانوا يبحثون عن أمهاتهم بمجرد عودتهم الى المنزل لكى يقبلوا أيديهن كما اعتادوا أن يفعلوا كل يوم[٣١٤] ، خاصـــة وقد أوصى القرآن بالوالدين « ووصينا الانسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن وفصــــاله فى عامين أن أشـــــكر لى ولوالديك الى المصير[٣١٥] » ، كما جاء فى الحديث الشريف « أن الجنة تحت أقدام الامهات[٣١٦] » .

هذا عن دور الزوجة المصرية فى المدنية ، أما عن الفلاحة فى الريف المصرى على عصر سلاطين المماليك ، فيبدو رغم قلة الاشارات اليها ، أنها كانت كما هى اليوم تنهض بنصيب فى

---

(٣١٣) ابن بسام ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٦١ — ١٦٣ .

(٣١٤) Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, p. 403.

(٣١٥) سورة لقمان آية ١٣ .

(٣١٦) Mansour Fahmy, La Condition de la femme, p. 47.

الحياة لا يقل جهدا ومشقة عن نصيب زوجها ، اذ كان يقع عليها عبء جلب مياه الشرب من النهر أو الترعة ، وغسل الملابس فيها ، وعمل « جواليس الجلة ليليسوا بها بيوتهم وأفرانهم » هذا بالاضافة الى ارضاع أطفالها واعداد الطعام لزوجها ، ووقيد الفرن لخبز الخبز « وتدميس الفول وطبيخ البيسار وتقمير البتاو[٣١٧] » .

---

(٣١٧) الشربينى ، هز القحوف ، ص ٥٤ .

الفصل السادس

الزينة

الزينة

وصف أحد المعاصرين نساء مصر بأنهن أرق نساء الدنيا طبعا وأحلاهن صورة(٣١٨) ، لذلك فمن الطبيعى ونحن بصدد الحديث عن المرأة فى مصر المملوكية أن نشير أيضا الى أدوات الزينة الخاصة بها ، وكذا الملابس التى أفاضت المصادر المعاصرة فى الاشارة اليها والحديث عنها ، لا سيما وقد تفننت المرأة فى ذلك العصر ، فى مختلف الوسائل التى تظهر جمالها وتبرز فتنتها ، وحرصت على أن تأخذ شعر وجهها وجسدها بالتحفيف ، وشعر حواجبها بالمساواة والزينة(٣١٩) . وقد استرعى نظر الرحالة تافور بالقاهرة ذلك العدد الضخم من العبيد السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة ، ويسيرون فى الشوارع صائحين ، فلما استفسر عن حقيقة أمرهم ، قيل له أنهم يقومون بتحفيف النساء اللائى

---

(٣١٨) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ورقة ٨٠ ب ؛ الصديقى ، الكواكب السائرة ، ورقة ١٦٨ أ .

(٣١٩) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ص ١٦٧ ؛ جـ ٤ ، ص ١٠٧ .

لا يرغبن فى اتمام هذه العملية فى الحمامات العامة[٣٢٠] .
والواقع أن الأخيرة كانت تعد فى العصور الوسطى عامة ، وفى
العصر المملوكى خاصة بمثابة معاهد التجميل الحالية التى تهرع
اليها الكثيرات من النساء للعناية بأنفسهن ولابراز جمالهن
وفتنتهن . وقد امتازت مصر على سائر الأقاليم الاسلامية
بابداع حماماتها وكانت ذات شهرة عظيمة فى ذلك . ويحدثنا
ابن دقماق عنها فيقول : « ان عمرو بن العاصر أمر بانشاء
أول حمام شيده المسلمون بسويقة المغاربة بالفسطاط » وكان
هذا الحمام يعرف بحمام الفأر بسبب مقايسه الصغيرة[٣٢١] ،
اذ كانت حمامات الروم تشتهر بسعتها وبأقسامها الثلاثة التى
سوف نشير اليها بعد قليل ، كذلك يروى لنا المقريزى أن
الخليفة الفاطمى العزيز بالله كان أول من شيد حماما فى مدينة
القاهرة[٣٢٢] .

وفى عام ١٩٣٢ أمكن لمتحف الفن الاسلامى أن يعثر فى
الحفائر الأثرية التى قام بها فى منطقة أبى السعود بمصر
القديمة على بقايا حمام من العصر الفاطمى على جانب كبير من

---

(٣٢٠) Tafur, Travels, p. 101.

(٣٢١) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٣٤ .

(٣٢٢) Pauty, Les Hammams du Caire, p. 1.

الأهمية نظرا لما كان يحتويه من الصور والرسوم التى وجدت منقوشة على جدرانه بالفريسكو باللونين الأحمر والأسود[٣٢٣].

ومن الحمامات العامة المملوكية التى لا تزال تحتفظ ببعض بقاياها حتى الآن حمام الأمير بشتاك بشارع سوق السلاح بالقاهرة وهو يرجع الى سنة ٧٤٠/١٣٣٩ ، وهذا الحمام لم يبق منه فى الواقع سوى مدخله المكسو بالرخام الملون . كما بقى لنا من حمام السلطان المؤيد شيخ ، الذى شيده سنة ٨٢٣/١٤٢٠ ، قبة مخربة . كذلك أشار المؤرخ ابن اياس أن السلطان سليم العثمانى عندما دخل حمام الاستادار ببولاق عام ٩٢٣/١٥١٧ ، أنعم على الحمامى بعشرين دينار « وأعجبته الحمام وشكرها[٣٢٤] » .

ولكن كيف كانت حمامات مصر على عصر سلاطين المماليك ، التى اتخذت منها النساء معاهد للتجميل ؛ وكن يقضين فيها الساعات الطوال تحت أيدى متخصصات فى فنون التجميل والزينة ؟

---

(٣٢٣) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٤٣ .

(٣٢٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١١٦ .

لم تتعرض المؤلفات التاريخية لوصف الحمامات العامة وتصميمها فى ذلك العصر ، كذلك لم يحتفظ لنا الزمن الا بالقليل من بقايا حمامات العصر المملوكى التى لا تفيد فى التعرف على طبيعة هذه الحمامات والمخصص منها للنساء بوجه خاص ومع ذلك فمن الممكن أن نتعرف على طريقة تخطيط حمامات هذا العصر من خلال دراستنا للوثائق والحجج المملوكية المعاصرة ، اذ جاء فى احدها فصل رائع فى وصف حمام يتلخص فى أنه بناء تتوسط واجهته بوابة ضيقة ذات معالم معمارية وزخرفية تدل على صفة المبنى . وأحيانا توجد بوابتان اذا كان الحمام مخصصا للسيدات والرجال فى آن واحد . أما المدخل فغالبا ما يكون منحنيا وفى ركن منه تقبع المشرفة على الحمام لتستقبل الزبائن وتتلقى منهن ودائعهن من نقود وحلى وغير ذلك مما يخشى عليه من الضياع أثناء الاستحمام وهذا المدخل يؤدى الى بهو فسيح عبارة عن صالة معدة للحصول على قسط من الراحة قبل وبعد الاستحمام . وبوسط هذا البهو توجد ردهة فسيحة مبلطة بالفسيفساء ويتوسطها فسقية رائعة ، وفى جوانبها ايوانات بها مصاطب ترتفع قليلا عن الأرض ومغطاة بحصير أو سجاجيد صغيرة . وأحيانا تحجب بعض هذه المصاطب بواسطة حواجز من الخشب لتمنع عيون الفضولين من رؤية من بداخلها ، كما توجد حنيات

أو دخلات صغيرة لحفظ الأحذية • ويعلو هذه الردهة (شخشيخة) لاضاءة هذا المكان اضاءة خفيفة اذا أن معظم المستحمات كن يتواجدن فيها وهن فى أزر من البشاكير أو الفوط •

ويلى هذه الردهة أجزاء الحمام الرئيسية وهى بيت أول وهو عبارة عن قاعة صغيرة مربعة تقريبا ، أعدت لتنزع فيها النساء ملابسهن • وتمتاز غرفة بيت أول هذه بالدفء وسميت كذلك لأنها أولى الغرف الدافئة • وعندما تخلع المستحمة ثيابها كانت تضع على جسدها ازارا يصل الى الركبتين وبعدها تنتقل الى الغرفة الرئيسية من غرف الحمام المسماة بيت حرارة • وهو عبارة عن قاعة تعلوها قبة ومبلطة بالفسيفساء ، وتحتوى على أربعة أواوين بكل واحد منها حوض حجرا ، وبه أيضا خلوتان وطهر وبيت نورة • وفى بيت الحرارة هذا تقوم البلانة بأداء عملها من تدليك جسد المستحمة بقشور الرمان لتصير خشنة ويخرج الوسخ وغسله بالماء الساخن الذى يوجد بالمغطس وبعد ذلك تقوم بتجفيف جسدها بالمناشف والفوط ، ثم تبدأ فى ازالة الشعر من بعض المواضع اذا لزم الأمر مستخدمة فى ذلك النورة وهى عبارة عن خليط من الجير والزرنيخ • وتتلخص طريقة اعدادها فى « القاء على كل عشرة أوزان من الجير الأبيض ووزن

واحد من الزرنيخ الخالص[٣٢٥] » وكثيرا ما شدد المحتسب على البلانة مراعاة دقة هذه الأوزان حتى لا تفسد النورة ، وتحدثنا قصص ألف ليلة وليلة أن البلانة كانت تستخدم عجينة من السكر والليمون لازالة الشعر بدلا من النورة[٣٢٦] . وعقب انتهاء البلانة من عملها كانت المستحمة تنتقل مرة ثانية الى غرفة بيت أول حيث تقضى هناك بعض الوقت تحت أيدى الماشطة التى كانت تنحصر مهمتها فى تزيين الوجه والرأس بكافة الطرق والوسائل حتى تبدو المرأة عند مغادرتها للحمام فى أجمل زينة وأكمل هيئة بما استصحبته معها من الثياب الفاخرة والحلى والجواهر حتى يراها غيرها فتقع كما سبق أن ذكرنا « المفاخرة والمباهاة[٣٢٧] » .

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن الحمامات العامة أن نشير الى اهتمام الحكومة المملوكية بأمر هذه الحمامات وتنظيم الدخول فيها وتوفير سبل الأمن لتحقيق القيام بأغراضها خاصة وقد اتضح لنا أن أهمية الحمام فى العصر المملوكى لم تقتصر على أنها مكان لنظافة البدن فحسب ، بل كانت مراكز التجميل

---

(٣٢٥) ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص ٧١ ــ ٧٢ .

(٣٢٦) Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, p. 402.

(٣٢٧) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ .

للرجال والنساء على السـواء ، ومن ثم فقد أسـندت مهمة الاشراف عليها الى المحتسب الذى كان يأمر « ضامن الحمام بنظافتها وكنسها وغسلها بالماء الطاهر غير ماء الغسالة ، يفعلون ذلك كل يوم مرتين ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة لئـلا يتعلق به الأوساخ والصابون ، فتنزلق عليها أرجل الناس » كما كان يأمره « بغسل الخزانة من الأوساخ المجتمعة فى مجاريها والعكر الراكد فى أسفلها كل شهر مرة لأنها ان تركت أكثر من ذلك تغير الماء فيها فى الطعم والرائحة ... وتبخير الحمام بالفحم واللبان فى كل يوم مرتين لا سيما اذا شرع فى كنسها وغسلها ... ويأمر ضامن الحمام أيضا بأن يجعل عنده ميازر يكريها أو يعيرها لمن يحتاج ، فان الغرباء والفقراء قد يحتاجون الى ذلك ، فان كشف العورة حرام ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسـلم الناظر والمنظـورة[٣٢٨] . لذلك لا عجب أن هاجم الفقيه المغربى ابن الحاج معـاصريه من العلماء لتركهم نسائهم يدخلن الحمامات باديات العورات « وهن يجتمعن فى الحمامات مسلمات ونصرانيات ويهوديات فيـكشف بعضهن على عورات بعض[٣٢٩] » .

---

(٣٢٨) ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص ٦٩ — ٧٠ .

(٣٢٩) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ .

وتؤدى بنا العبارة الأخيرة لهذا الكاتب الناقد الى التساؤل عن موقف الاسلام من دخول المرأة الحمام ؟ يروى الفقيه تقى الدين بن تيمية أحد كبار مفكرى عصر سلاطين المماليك أن الرسول قد حرم على النساء الدخول الى الحمامات الا لضرورة قصوى حين قال : « ... ومن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر من اناث أمتى فلا تدخل الحمام الا مريضة أو نفساء[٣٣٠] » ، الأمر الذى ترتب عليه نفور أغلب فقهاء هذا العصر من الحمام .

فالسيوطى يبيحه للرجال بشروط ، ويقول أنه مكروه للنساء الا فى حالات خاصة[٣٣١] . وابن الحاج ينصح معاصريه بعدم السماح لنسائهم بدخول الحمام « لما اشتمل عليه فى هذا الزمان من المفاسد والعوائد الرديئة[٣٣٢] » . ومع ذلك فتصور لنا قصص ألف ليلة وليلة كيف احتل الحمام بكل مافيه من حياة ، مكان المسجد فى الأخبار العربية القديمة ، وكما كان الرجال يجتمعون لأمور جدهم فى المسجد ، فقد اجتمعت نساء

---

(٣٣٠) ابن تيمية ، مجموع فتاوى ، جـ ١ ، ص ٦١ .

(٣٣١) السيوطى ، منتقى الينبوع ، ورقة ٤ ؛

Pesle, La Femme musulmane, p. 239.

(٣٣٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

القاهرة وغيرها من المدن فى الحمام للعنـاية بزينتهن وليلهون وليتحادثن وليرين الغريب وليتصلن به[٣٣٣] . كذلك تصور لنا هـذه القصص المراحل المختلفة التى كانت تمر بها المـرأة فى الحمام حتى تخرج فى النهاية فى أبهى زينة وأجمل صـورة ، فتشير كيف كانت تعطر الرأس بعد الاستحمام بالمسك وكيف كانت تزين الحواجب والعيون بالكحل وما الى ذلك من تبخير الكعوب بالبخور المخلوط بالعنبر والمسك من تخضيب الأيدى بالحناء[٣٣٤] ، تلك الظاهرة التى جذبت أنظار الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر على عصر المماليك مثل الرحالة اليهـودى ميشلام بن مناحم الذى كتب يقول « ان نساء مصر قد اعتدن تخضيب أياديهن بألوان ثابتة قلما استطاع الماء ازالتها قبـل مضى ستة أشهر ، وذلك على الرغم من اغتسالهن اليـومى فى الحمامات العامة[٣٣٥] » وذكر أيضا المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى عند اشارته الى مقتل خوند بنت صرق مطلقة السلطان فرج بن برقوق أن أصابعها كانت مقمعة بالحناء[٣٣٦] .

---

(٣٣٣) سهير القلماوى ، ألف ليلة ، ص ٢٣٦ .

(٣٣٤) Mardrus, Le Livre des mille nuits, I, p. 402; VIII, p. 192.

(٣٣٥) Dopp, Le Caire vu . . . , BSRGE, XXVI, p. 26.

(٣٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٦ ، ص ٢٥٤ .

ولم تقتصر نساء مصر على صبغ أياديهن بالحناء على عصر سلاطين المماليك ، بل اعتدن أيضا طلاء أظافرهن بطلاء أحمر استرعى كذلك انتباه بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر على أواخر هذا العصر(٣٣٧) . هذا بخلاف الوشم الذى اعتادت كثيرات من النساء أن يزين به أجزاء مختلفة من أبدانهن(٣٣٨) والتى كانت تقوم به الصانعة كما سبق أن ذكرنا . وطريقة الوشم كانت تتم عن طريق وخز الجلد بمجموعة من الابر تكون سبعا فى العادة على الشكل المراد رسمه ثم يدلك الموضع بمزيج من سناج الخشب أو الزيت ومن لبن المرأة . وبعد أسبوع وقبل أن يبرأ الجرح يوضع عليه معجون من أوراق السلق أو البرسيم فيكسبه لونا أزرق أو مائلا الى الخضرة وقد يدلك مكان الابر بالنيلج فى بعض الأحيان . وغالبا ما يكون الوشم فى الوجه فى أعلى الذقن وعلى ظهر اليد اليمنى واليسرى أحيانا أو على الذراع الأيمن . وقد يكون على الذراعين معا وفى القدم وعلى وسط الصدر والجبهة . كذلك درجت بعض نساء صعيد مصر وهن يتميزن بلونهن الداكن على وشم الشفاه

---

(٣٣٧) Schefer, Voyage magnifique, p. 211.

(٣٣٨) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ١٦٧ ؛ الشعرانى ، لواقح الأنوار ، جـ ٢ ، ص ٢١١ .

ليكسبن أسنانهن بريقا ولمعانا[٣٣٩] .

ويبدو أن طريقة الرسم هذه قد أثارت ثائرة فقهاء عصر المماليك لأنهم كثيرا ما أشاروا فى كتاباتهم الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله[٣٤٠] » . ويفهم من هذا الحديث الشريف أيضا أن المرأة فى ذلك العصر قد اعتادت على نقش الحواجب حتى ترقها ، كما درجت على تفليج أسنانها بالمبرد للتحسين وعلى جردها لتبيض[٣٤١] .

ويبدو أن طريقة الرسم هذه قد أثارت ثائرة فقهاء عصر
عنها شيء يذكر فى كتابات مؤرخى تلك الفترة ، كذلك من الصعب التعرف عليها من خلال تصاوير العصر المملوكى اذ غالبا ما تبدو صور النساء فى هذه التصاوير غير واضحة المعالم ونادرا

---

(٣٣٩) Lane, The Modern Egyptian, p. 42.

(٣٤٠) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٤ ، ص ١٠٧ ؛ المقدسى ، بذل النصائح ، ورقة ٨٤ أ ؛ التركمانى ، اللمع ، ورقة ١٣٦ ب ؛ الشعرانى ، لواقح الأنوار ، جـ ٢ ، ص ٢١١ .

(٣٤١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٤ ، ص ١٠٧ ؛ زكى مبارك ، التصوف ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ .

ما تكون الرأس مكشوفة ومع هذا فيفهم من كتابات فقهاء العصر المملوكى أن النساء قد اعتدن على وصل شعورهن اذ يقول الشعرانى « أخذ علينا العهد العام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نقر أحد من النساء على وصل شعرها ...» وأنه لعن الواصلة أى التى تصل الشعر بشعر النساء والمستوصلة أى المعمول بها ذلك[٣٤٢] ، تلك البدعة التى كنا نعتقد فى الواقع أنها من مستحدثات العصور الحديثة ومن مبتكرات الحضارة الأوربية فى أيامنا هذه . كما اعتادت بعض النساء على تصفيف شعورهن على هيئة جدائل[٣٤٣] يتراوح عددها حسبما ورد فى احدى قصص ألف ليلة وليلة ما بين احدى عشرة ضفيرة وخمسة وعشرين ، بشرط أن يكون العدد فرديا ، هذا عدا اضافة ثلاثة خيوط حريرية سوداء الى كل جديلة ، معلق بها قطع ذهبية صغيرة ذات شكل مستدير تعرف باسم « صفا[٣٤٤] » .

---

(٣٤٢) التركمانى ، اللمع ، ، ورقة ١٣٦ ب ؛ الشعرانى لواقح الأنوار ، جـ ٢ ، ص ٢١١ ؛ زكى مبارك ، التصوف ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ .

(٣٤٣) Mardrus, Le Livre des mille nuits, VIII, p. 192.

(٣٤٤) Lane, The Modern Egyptians, p. 168.

وقد أكثر بعض كتاب عصر المماليك من نصح النساء باستكمال زينتهن داخل المنازل وذلك بتسريح الرأس وتزيين الشعر والتطيب بالطيب أمام الزوج « حتى يطيب قلبه[٣٤٥] » . كذلك أخذ الفقهاء المعاصرون على النساء عنايتهن بالزينة عند الخروج من المنازل ، واهمال أنفسهن داخلها أمام الأزواج كما يحدثنا بذلك ابن الحاج « فتقعد المرأة فى بيتها على ما هو معلوم من عادتها بعفش ثيابها وترك زينتها وبحملها وبعض شعرها نازل على جبهتها الى غير ذلك من أوساخها وعرقها حتى لو رأها رجل أجنبى لنفر بطبعه منها غالبا فكيف بالزوج الملاصق لها[٣٤٦] » . فاذا أرادت الواحدة منهن الخروج الى الطريق العام تنظفت وتزينت ، ونظرت الى أحسن ما عندها من الثياب والحلى فلبسته ، وتخرج الى الطريق كأنها عروس تجلى وتمشى فى وسط الطريق وتزاحم الرجال وقد لجأت بعض النساء فى عصر سلاطين المماليك الى استغلال جمالهن وحسنهن للايقاع بالرجال ، فتخرج الواحدة الى الشارع وقد استكملت زينتها ، وتسير أمام الناس فى صورة ملفتة للنظر « ولهن فى مشيهن صنعة[٣٤٧] » . فاذا طمع فيها أحد الرجال واستهوته

---

(٣٤٥) السيوطى ، الايضاح فى علم النكاح ، ورقة ٥ ، ٦ .
(٣٤٦) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ ، ص ٢٤٥ .
(٣٤٧) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ .

وطلبها : ردت عليه أنه لا يمكنها أن تذهب الى أحد ، ولكنه يستطيع أن يتبعها الى منزلها وهناك فى منزلها يدفع الرجل ثمن شهوته غاليا ، اذ وصل ذلك الثمن أحيانا الى حد قتله وسلب ما معه من أموال(٣٤٨) . بقى أن نحاول التعرف على مقاييس ومعايير الجمال على عصر سلاطين المماليك : بمعنى آخر ما هى الشروط الواجب توافرها فى المرأة لكى تعد من جميلات هذا العصر ؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال ينبغى أن نوضح منـذ البداية أن مقاييس الجمال ومعاييره تختلف من عصر الى عصر ومن مكان الى آخر وذلك تبعا لاختلاف الأذواق واختـلاف العادات والتقاليد وأيضا لاختلاف الحضارات . ومع ذلك فمن الممكن التعرف على بعض هذه المعايير من خلال بعض الاشارات الواردة فى القصص المصرى من ألف ليلة وليلة حيث يفهم منها أن المرأة كانت تعد من الجميلات اذا كانت بيضاء البشرة ناعمة الملمس وذات وجه مستدير يشبه القمر فى استدارته ، ومفرطة البدانة ، ذات صدر كبير ممتلىء وأرداف عريضة (٣٤٩) . لذلك

---

(٣٤٨) ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة ، ص ٤٠ .

(٣٤٩) Mardrus, Le Livre des mille nuits. I, p. 398 ; III, p. 2 ; VI, p. 425.

لا عجب ان أقبلت نســاء هذا العصر على العنــاية بسمنتهن وبدانتهن حتى يحزن اعجاب رجال عصر المماليك وان كانت المصادر التاريخية قد ضنت علينا فى الواقع بذكر الوسائل التى اتبعتها المرأة لكى تزيد من وزنها ولكى تزيد من المعجبين بها وبشحمها وكل الذى تحت أيدينا عبارة عن نص فريد خلفه لنــا الفقيه المغربى ابن الحاج ، الذى حمل فيه حملة شعواء على نساء عصره اللائى حرصن على ارتكاب بعض الحماقات من أجل المحافظة على بداتتهن ، « ومن ذلك ما يفعله بعض النسوة من افطارهن فى شهر رمضان المعظم قدره لغير عــذر شرعى • وذلك أن المرأة اذا كانت مبدنة وتخاف أنها ان صامت اختل عليها حال سمنها فتفطر لأجــل ذلك ، وكذلك بعض البنــات الأبكار يفطرهن أهلهن خيفة على تغيير أجسامهن عن الحسن والسمنة • وكذلك من كانت منهن قد عقد عليها زوجها ولم يدخل بها بعد فتترك الصوم خيفة على بدنها أن ينقص » • وعن الوسائل التى اتبعتها المرأة على عصر سلاطين المماليك للزيادة من وزنها يروى ابن الحاج « ••• وهى أن المرأة اذا أتت الى فراشها بعد أن كانت تعشت وملأت جوفها فتأخذ عند دخولها الفراش لباب الخبز فتفته مع جملة حوائج أخر فتبتلع ذلك بالماء ، اذ أنها لا تقدر على أكله لكثرة شبعها المتقــدم وربما تعيد ذلك بعد جزء من الليل يمضى عليها » طلبا للسمنة

ومحافظة على وزنها وبداتتها . ويشير هذا الكتاب الى أمـر شنيع فظيع ترتب على طلب السمنة « وذلك أن بعضهن يأكلن مرارة الأدمى لأجل أن من استعملها منهن يكثر أكلها وقل أن تشبع بسبب ذلك ... ويزيد حسنها ويغتبط الرجل بها[٣٥٠] » .

ومن الطبيعى أن ينعكس اهتمام المرأة بجمالها وزينتها على أدوات التجميل ، التى بلغت على عصر سلاطين المماليك فى مصر شأنا كبيرا لاقبال النساء عليها باهتمام بالغ يساير طبيعتهن وما عرفن به من ميل الى التزين . حقيقة أن المصادر المعاصرة قد بخلت علينا بمعلوماتها بصدد نوعية هذه الأدوات وأشكالها ، الا أن الحفائر الأثرية قد عوضتنا هذا النقص بما أمدتنا به من أدوات تجميل مختلفة من أمشاط ومرايا ومكاحل وحلى باعتبار أنها من وسائل التجميل الأساسية التى لا غنى عنها للمـرأة لما لها من أهمية خاصة فى زينتها ووجاهتها .

ويشتمل متحف الفن الاسلامى بالقاهرة على مجمـوعة كبيرة من أمشاط الشعر التى كانت تستعمل فى تصفيف شـعر الرأس . وقد سبق أن رأينا مدى اهتمام نساء العصر المملوكى بأمر شعورهن وابتكار كافة الوسائل لابراز جمالهن . والأمشاط

---

(٣٥٠) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ٦٠ ـــ ٦٥ .

التى يحتفظ بها متحف الفن الاسلامى مصنوعة من الخشب أو السن أو القرن أو الأبنوس • ويبدو أن الخشب كان المادة المفضلة فى صناعة الأمشاط لكثرة ما يحتويه هذا المتحف منها ، فضلا عن رخص تكاليفها مما جعلها تتناسب مع امكانيات جميع الطبقات • أما مجموعة الأمشاط المصنوعة من السن فمحدودة العدد ومن المرجح أنها كانت قاصرة على طبقة المماليك لارتفاع أسعارها •

أما عن أشكال هذه الأمشاط فهى تشبه النوع المعروف فى الوقت الحالى « بالفلاية » التى لا تزال تستخدم بكثرة فى ريفنا المصرى وفى بعض الأحياء الشعبية • وتختلف مقاساتها طولا وعرضا وأسنان المشط من جهتين ، جهة للأسنان الرفيعة الحادة وجهة للأسنان السميكة القوية • أما الجزء الأوسط المحصور بين الأسنان فتزينه من الوجهين زخارف مختلفة بالطلاء أو بالحفر البارز أو الغائر[٣٥١] تتمثل فى الأشكال النباتية وفى رسوم الحيوانات والطيور والأسماك وفى الزخارف الهندسية وفى الرنوك التى تشير الى شارات الوظائف المملوكية للسلاطين والأمراء وفى الكتابات التى تتضمن عبارات ومعان لا تخلو من الطرافة فمثلا نجد على بعض هذه الأمشاط

---

(٣٥١) Ahmad Abd ar-Raziq, Les Peignes, Syria, XLIX, p. 406 ; La Femme, pp. 222-223.

العبارات التالية : أنا مشط عملت للتسريح / لا أسرح الا لكل مليح[٣٥٢] وما دعاني الهوا لمعصيته / الا نهاني الحيا والكرم[٣٥٣] ، رب أختم بخير[٣٥٤] ، من جد وجد[٣٥٥] ، من كتم سرى / ملك أمرى[٣٥٦] ، الصبر طيب[٣٥٧] . كما تشتمل بعض هذه الكتابات على بعض الآيات القرآنية[٣٥٨] وعلى بعض

---

(٣٥٢) مشط رقم ٤٩١٩ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

(٣٥٣) مشط رقم ٣٨٨٣ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

(٣٥٤) مشط رقم ٢/٤٩٥٧ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، وتحتفظ المكتبة الأهلية بباريس بآخر يحمل نفس العبارة أنظر
Ahmad Abd ar-Raziq, Les Peignes, Syria, XLIX, p. 402.

(٣٥٥) مشط رقم ٨٣٢٣ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

(٣٥٦) مشط رقم ٨٣٣٩ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

(٣٥٧) مشط رقم ١/١٩٤٠٠ محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

(٣٥٨) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 224 ; Les Peignes, Syria, XLIX, p. 407.

الألقاب الخاصة بالنساء مثل الستر الرفيع[٣٥٩] والحجاب المنيع[٣٦٠] .

ويوجد أيضا من هذه الأمشاط نوع له أسنان من جهة واحدة ذو شكل مقوس أو مربع كما يوجد نوع آخر مزدوج وله مفصلات من الخشب ، كما يوجد لبعض هذه الأمشاط ثقب فى أعلاها يدل على أنها كانت تعلق فى رقبة المرأة أو على الحائط لتكون فى متناول يدها . ويحدثنا المقريزى عن أماكن بيع الأمشاط قائلا : « أنه بنى فيما بين المدرسة الصالحية وبين الصاغة سوق فيه حوانيت مما يلى المدرسة الصالحية يباع فيها الأمشاط يعرف بسوق الأمشاطيين[٣٦١] » .

ومن أدوات التجميل الخاصة بالمرأة نذكر أيضا المرآيا المعدنية التى تعد من أسبق ما عرف من حاجيات الانسان المتمدين ، فقد جاء ذكرها فى الكتب المقدسة ، كما وجدت نماذج عديدة منها فى قبور المصريين القدماء . وهى عبارة عن

---

(٣٥٩) Ahmad Abd ar-Raziq, Les Peignes, Syria, XLIX, p. 400.

(٣٦٠) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٦٤ ؛ المشط رقم ٤٩٢٢ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

(٣٦١) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .

قرص مستدير مصنوع من البرونز أو الصلب وله أحيانا مقبض مصنوع من قطعة واحدة مع القرص نفسه أو مضافا اليه . وفى هذه الحالة الثانية نجد أن زخـرفة المقبض تختلف تماما عن زخرفة باقى المرآة . ولهذا القرص وجهان ، وجه مصـــقول يعكس صور الأشياء ووجه عليه زخارف بارزة من عنـــاصر آدمية أو حيوانية أو نباتية أو هندسية أو كتابات نسخية[٣٦٢] .

والأسلوب الشائع استخدمه فى زخرفة المرآة هو تقسيم الوجه غير المصقول الى عدة دوائر ذات مركز واحد ، وتزخرف كل دائرة من هذه الدوائر بعنصر زخرفى من العناصر السابقة هذا وقد يشغل الموضـــوع الزخرفى ســـطح المرآة كله بدون تقسيمه الى هـــذه الدوائر كما نرى أحيانا دائرة صـــغيرة فى الوسط ، وجدير بالذكر أن بعض هذه المرآيا مكفت بالذهب والفضة مثل تلك المرآة التى يحتفظ بها المتحف البريطانى بلندن والتى صنعت خصيصا لزوجة أحد امراء المماليك[٣٦٣] ، والمرآة التى بعث بها الى السلطان الأشرف برسباى والتى اشـــتراها متحف الفن الاسلامى من رالف هرارى فى الفترة الأخيرة .

---

(٣٦٢) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٦٩ .

(٣٦٣) Wiet, Inscriptions, JA, CCXLVI, pp. 243-246 ; Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. III/B.

وهى عبارة عن مرآة مستديرة من الحديد عليها آثار تذهيب وظهرها مزين بدائرة مركزية مملوءة بزخارف نباتية تتخللها أسلاك مشعة من نجمة مركزية سداسية الرؤوس يحيط بها شريط من الكتابة النسخية المملوكية باسم السلطان المذكور وهى تمتاز بمقبضها المضلع المحزوز المزين بشريط من الزخارف الهندسية[٣٦٤] . ومن بين مرآيا العصر المملوكى نشير الى مرآة ثالثة بمتحف الفن الاسلامى وهى من البرونز وعلى ظهرها زخارف نباتية وعلى وجهها المصقول كتابات قرآنية وأخرى سحرية ، الأمر الذى يدل على أنها كانت تستعمل أيضا كتميمة تقى صاحبتها من الحسد[٣٦٥] . ولأهل الصين اعتقاد راسخ فى أن المرآة تفيد فى السحر والشعوذة وأنها من الأدوات المقدسة التى لا غنى عنها وكانوا يعتقدون أنها تصور الصدق والثبات ، فى الوقت الذى رأى فيها الغربيون أنها عنوان الكذب والنفاق[٣٦٦] .

ومن معدات التجميل التى حرصت المرأة على اقتنائها

---

(٣٦٤) معرض الفن الاسلامى فى مصر ، ابريل ١٩٦٩ ، لوحة ١٧ ؛
Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 225, pl. IV/A.

(٣٦٥) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٧٧ ، رقم ١٥٣٢٧ .

(٣٦٦) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٧٠ .

المكاحل ، التى يضم متحف الفن الاسلامى أعدادا وفيرة منها صنعت من مواد مختلفة مثل الزجاج والخشب والفضة والنحاس، عثر عليها المنقبـون عن الآثار فى حفائر مدينة الفسـطاط ، وبعضها لا تزال آثار الكحل عالقة بجدرانها وهـذه المكاحل من التنوع والابداع بحيث تشمل معظم الأشكال التى تخرجها المصانع فى العصر الحديث وتدل على أنها كانت من معـدات التجميل ذات الصـدارة التى اهتمت المرأة باقتنائها منذ أقدم العصور[٣٦٧] .

وللمكاحل مهما اختلفت مادتها مرود ينغمس فيها عنـد قفلها . والغرض من وجوده هو استعماله فى أغراض التجميل التى يستعمل فيها الـكحل سواء فى الحواجب أو فى رموش العين وقد اختلفت مواد هذه المراود بصرف النظـر عن مادة المكحلة نفسها ، فقد تكون المكحلة من العـاج ومرودها من الخشب أو العكس ، وقد تكون المكحلة من الزجاج وينغمس فيها مرود من البلور مثلا . وأغلب الظن أن هذه المراود كانت تبل بالماء قبل غمسها فى المكحلة حتى يتعلق بها الكحل المسحوق ليسهل استعماله فى أغراض الزينة خاصة وقد استعاضت بعض النساء بمسحوق الكحل عن الشعيرات المتساقطة ، مما يدل على

---

(٣٦٧) Ahmad Abd ar-Raziq La Femme, p. 226,

المستوى الذى بلغه فن التجميل حينذاك ، وعلى ما كان للكحل من منزلة رفيعة بين المواد التى أستخدمت فى فن التجميل على عصر سلاطين المماليك • ولعل من أبدع مكاحل هـذا العصر التى يحتفظ بها الفن الاسلامى واحدة مصنوعة من السن • وفى أعلاها تجويف لتخزين الكحل له غطاء كمثرى الشكل ، ينتهى من أعلى بسلسلة من المعدن ليعلق فيها المرود الذى خصص له تجويف آخر أضيق من السابق بجوار المكحلة • أما قاعدتها فذات شكل كأسى مقلوب • وبدنها ذو شكل منشورى مسدس الاضلاع ومكسو بطبقة دقيقة من الفسيفساء تتألف من قطع صغيرة من الأبنوس والسن تؤلف فى مجموعها أشكالا هندسية رائعة • وهذا الأسلوب من الزخرفة يعرف لدى المتخصصين فى الفن الاسلامى باسم الترصيع وهو من الأساليب التى شاع استعمالها فى العص المملوكى(٣٦٨) •

كذلك كانت الحلى من أهم أدوات التجميل التى لا غنى عنها للمرأة فى مصر المملوكية غير أنه من المؤسف حقا أن تكون النماذج التى وصلت الينا منها نادرة جدا • ولعل السر فى ذلك أن الحلى والمعادن النفسية كانت تصهر ويعاد سكبها عند ما يتقادم

---

(٣٦٨) أحمد ممدوح حمدى : معدات التجميل ، ص ١١٣ ؛
Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 227, pl. IV / C.

بها العهد فضلا عن أن قيمتها المادية تبعث على التصرف فيها ، وما أكثر الأوقات التى كان يساد فيها القحط أو يضطرب فيها حبل الأمن •

أما المصادر التاريخية فان كل ما فيها عبارة عن بيانات بعدد القطع ونوعها ونادرا ما تحتوى على وصف دقيق للحلى يمكننا عن طريقه أن نقف على طرزها ونوع زخارفها وأسلوب صناعتها على وجه سليم • ولعل مرجع هذا القصور أن أكثر هؤلاء المؤلفين لم ير تلك الحلى والجواهر التى عنى بالكتابة عنها ، اما لانها كانت محفوظة فى خزائن لم يكونوا يستطيعون الوصول اليها ، أو لأنها كانت زينة للخوندات وزوجات الأمراء والمحظيات والجوارى وأما لان ما كتبوه كان منقولا عن مصادر ليس لها بالحلى والجواهر دراية كبيرة •

ومهما يكن من شيء فقد وصلنا من حلى العصر المملوكى بعض الأمثلة القليلة النادرة أهمها دلاية من الذهب عليها كتابة بالخط النسخ وزخارف بالمينا المتعددة الألوان • والمينا عبارة عن مادة زجاجية نصف شفافة تذاب وتستخدم فى زخرفة المعادن كالذهب والفضة والنحاس • وقد عرفت العصور الوسطى طريقتين لزخرفة الحلى بالمينا : طريقة يطلق عليها المينا ذات الفصوص • وفيها تصب المينا فى حواجز رقيقة ذهبية تلصق

على المعدن وأخرى تعرف بطريقة الحفر ، وفيها توضع المينا فى تجاويف حفرت خصيصا لها على صحيفة من المعدن ثم تسوى التحفة فى النار لتثبت المينا . هذا ومن الملاحظ أن الطريقة الأخيرة قد شاعت على عصر سلاطين المماليك ، ربما لكثرة الطلب على الحلى المزينة بالمينا ، خاصة وأنها لم تكن تتطلب تعبا ومهارة كبيرة فى صنعها مثل طريقة المينا ذات الفصوص .

وبمناسبة ذكر الدلايات ، نشير هنا الي استعمال نساء الفلاحين لهذا النوع من الحلى فقد كانت الدلايات الخاصة بهم تتألف من سلاسل فضية تعلق على الأصداغ وترخى الى الصدر ويجعل فى آخرها جلاجل من فضة وبرق ونحو ذلك[٣٦٩] . كما عرفت نساء هذا العصر القلائد المصنوعة من العنبر والتى سميت بالعنبرية وقد ذكر المقريزى انه لا يكاد يوجد « بأرض مصر امرأة وان سفلت الا ولها قلادة عنبر[٣٧٠] » .

ووصلنا من حلى نساء هذا العصر بعض العقود الذهبية

---

(٣٦٩) الشربينى ، هز القحوف ، ص ٦٠ .

(٣٧٠) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٣٩ ؛ أقبغا الخصكى ، التحفة ، ورقة ٧٩ ب .

منها واحد محفوظ بمتحف الفن الاسلامى يتألف من عشرين سملكا شغل « شفتشي[٣٧١] » أى ذو زخارف مخرمة تشبه الداتلا ، شكلها بيضاوى ، وبأعلى كل منهما لؤلؤة صغيرة الحجم . ويتدلى من العقد ثلاث دلايات مستديرة بوسط كل منها حجر مستدير ، الوسطى منها مثبتة فى شكل هلال صغير مطعم بالمينا يعلوه كتابة دعائية نصها « عز دائم[٣٧٢] » . هذا فضلا عن الأطواق المرصعة والأطواق الفضية التى كانت شائعة لدى نساء الفلاحين والتى كانت تعرف عندهم بأسم « الضامن[٣٧٣] » .

ومن الحلى التى أقبلت عليها المرأة فى مصر المملوكية الأساور التى كانت تصنع من الذهب المفرغ أو المجدول، والتى كان طرفاها ينتهيان برؤس حيوانية مثل الأسد أو التنين[٣٧٤] ، التى كانت تقبض على محبس السوار الذى كان يعلوه فى بعض

---

(٣٧١) عن هذا اللفظ أنظر :
Lane, The Modern Egyptians p. 574 .

(٣٧٢) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 228, pl. V;
أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ١٣١ ، لوحة ٥٥

(٣٧٣) الشربينى ، هز القحوف ، جـ ٢ ، ص ١١٥ .

(٣٧٤) أنظر السوار رقم ١٥٤٧١ ، والسوار رقم ١٤٨٠٢ والسوار رقم ١٥٥٤٦ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .

الأحيان كتابات عربية تتضمن بعض الأمثال الشائعة مثل « عز من قنع ، وذل من طمع[٣٧٥] » . هذا عدا الغوايش الزجاجية الملونة التى أمدتنا الحفائر الأثرية بكميات كبيرة منها ، والتى لاشك فى أنها كانت بمثابة أساور نساء عامة الشعب[٣٧٦] . كما يفهم من كتابات الرحالة الاجانب الذين زارو مصر فى العصر المملوكى أن أصابع النساء كانت مزينة بخواتم من الذهب والفضة المحلاة بالفصوص الثمينة [٣٧٧] . ويبدو أن اقبال النساء على هذا النوع من الحلى كان شديدا لدرجة أن المحتسب كان كثيرا ما يحلف باعة الخواتيم أن يصدقوا فى أوزان أثمانها للزبائن ، كما كان يحرم عليهم أن يعملونها باليسير من الفضة ، ويحشونها بالرصاص ، والزفت حتى لا تكون سريعة الكسر والتهشيم . وكان عليه أيضا أن يجبرهم على أن يصدقوا فى نعت فصوصها ، « فان أكثرها زجاج مصنوع ومطبوخ فى دهان الزبادى [٣٧٨] » .

---

(٣٧٥) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ١٣٢ ، رقم ١٦٤٣٥ .

(٣٧٦) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 228, pl. VI/B

(٣٧٧) Dopp, Le Caire vu . . . , BSRGE, XXVI, p. 114.

(٣٧٨) ابن بسام ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٠٧ .

وعلى الرغم من أن أغلب فقهاء هذا العصر قد نادوا بضرورة تحريم ثقب الأذن والأنف فقد وصلتنا بعض الأقراط الذهبية والفضية من العصر المملوكى ومنها قرط كبير من الذهب محفوظ بمتحف الفن الاسلامى على شكل دائرة يتوسطها شريط مستطيل به زخارف ذات أشكال نباتية وهندسية مفرغة، وتتدلى من أسفله حليتين تكتنفان دائرةصغيرةبها زخارف مخرمة(٣٧٩) • كذلك يحدثنا أحد الرحالة الاجانب بأن النساء قد اعتدن أن يثقبن آذانهن لتزيينها بالأحجار الثمينة ، وبأن هذه الثقوب تتراوح ما بين ثمان وعشر ثقوب(٣٨٠) •

واعتادت نساء هذا العصر ان تتخذ من الخلاخيل زينة لأرجلهن « ويروى لنا الفقيه المغربى ابن الحاج كيف درجت نساء العصر المملوكى على جعل الخلخال فوق السراويل حتى تظهر للعيان • « وقد ضرب برجلها فى الغالب فيسمح

---

(٣٧٩) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ص ١٣٣ ؛ لوحة ٢/٥٦ ؛

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 229, pl. VI/C.

(٣٨٠) Dopp, Le Caire vu . . . , BSRGE, XXVI, p. 114.

له حس[٣٨١] » . كذلك اتخذت نساء الفلاحين خلاخيل لها من النحاس أو الحديد المطلى بالقصدير[٣٨٢] » .

وتتيجة لاقبال نساء العصر المملوكى على الحلى ، أن حرص سلاطين هذه الدولة على بعث الطمأنينة فى نفوس الناس فأنشأوا دار العيار لمراقبة تجارة الحلى . وكانت الدولة تنفق على هذه الدار الديوان فيما يحتاج اليه من الأصناف كالحديد والنحاس والخشب وغير ذلك من الآلات وأجر الصناع والمشرفين ، ولاتباع الصنج والموازين والأكيال الا بهذه الدار . كذلك كان على محتسب مصر والقاهرة حينذاك أن يراقب الصياغ ويمنعهم من أن تكون أكوار السبك معلقة أو مرتفعة حتى لا يخفى ما يسبك فيها عن أعين صاحبه سواء أكان ذهب أو فضة ، وكان عليه أيضا أن يحذرهم من السرقة بواسطة الماسك أو سبخ النار ومن دس النحاس أو غيره الى ما يقوم بسباكته ، وكثيرا ما حتم على كل صائغ أن يجعل عنده عينة صغيرة مما يصنعه ويصوغه لكل زبون حتى يمكن الرجوع

---

(٣٨١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ٢ ، ص ١٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٧٦ .

(٣٨٢) الشربينى ، هز القحوف ، ص ٦٨ .

اليها عند الحاجة وفى حالة حـدوث أى شكوى « حتى يزول الشك والريبة[٣٨٣] » .

وعمدت الدولة المملوكية أيضـا الى العنـاية ببيع الحلى وأقامت لها الأسواق الخاصة مثل سوق القفصيات الذى كتب عنه المقريزى قائلا « أنه كان معد لجلوس أناس على تخوت تجـاه شبابيك القبة المنصورية ، وفوق تلك التخوت أقفاص صغار من حديد مشبك فيها الطرائف من الخواتيم والفصوص وأسـاور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك[٣٨٤] » .

ننتقـل الآن الى الحـديث عن ملابس المـرأة فى العصر المملوكى باعتبارها أحد وسائل الزينة الأساسية ، بيد أنه قبل أن نبدأ الاشارة الى هذه الملابس والى أنواعها المتعددة وطرزها المختلفة ينبغى أن ننبه الأذهان الى أن تفكير المرأة فى كل زمان ومكان يبدو متجانس ، وملابسها كانت ولازالت عرضه للتغيير والتبديل فهى تطلع علينا كل حين وآخر بزى جـديد . وليس تغيير الأزياء وتبديلها عند النساء فى الحقيقة الا ضربا من مللهن للنظام الاجتماعى ، فهن أسرع الناس الى الملل والرغبة فى التغيير

---

(٣٨٣) ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص ١٠٦ .

(٣٨٤) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .

والتجديد وكلما كثر مللهن كثر تغييرهن فرارا من السأم وطلبا للراحة • واذا ابتكر زى جديد عد مثال للأناقة فى وقته فتنقـاد له كما هو معروف نفوس النساء جميعا بلا أدنى تفكير •

ولعل مرجع تلون الأزياء والملابس وتنوعها عند النسـاء فى مختلف أدوار التاريخ ، الى اختلاف الذوق والاهواءومراعاة البيئة المحلية خاصة عندما تلعب الظروف الاجتماعية دورا هاما فى تشكيل هذه الأزياء وفى تنوعها عند النساء ، وليس ثمة شك فى أن لكل عصر طابع خاص يميزه عن غيره ولاسيما فى أحواله الاجتماعية • فالمرأة فى مصر على عصر المماليك كانت تختلف اختلافا شاسعا عنها بعد الفتح العثمانى لمصر • فقد ترتب على تغير الأحوال وقيام الحروب والثورات وسقوط المماليك وتفش المجـاعات والمحن ان النسـاء كن يسـايرن الزمن ويغيرن فى هندامهن كما سوف نرى من دراستنا لملابس المـرأة فى العصر المملوكى ، التى يحسن أن نبدأ حديثا عنها بالاشارة الى الأنواع الداخلية منها ، والتى يأتى على مقدمتها المئزر ، وهو نوع من السراويل التى كانت تصل الى الركبتين(٣٨٥) وهو يشبه فى هذا

---

(٣٨٥) Dozy, Vêtements, p. 38 ; Ashtor, L'Evolution des prix, JESHO, I, p. 42 ; Histoire des prix, p. 348 ; Mayer, Costume, p. 69.

ما كان محتما على الرجال ارتداءه فى الحمامات العامة[٣٨٦] . ورغم قلة المعلومات التى وصلتنا عن شكل المئز الخاص بالمرأة وعن أنواعه ، فقد عثرنا فى أحد عقود الزواج التى ترجع الى نهاية العصر المملوكى ، على اشارة طريفة تفيدنا فى التعرف على أسعار هذا النوع من الملابس الداخلية ، اذ جاء فى هذه الوثيقة أن المئز كان يباع بستة دراهم مؤيدية[٣٨٧] . وشاع أيضا استعمال النساء لنوع من السراويل الطويلة بدليل ما رواه المؤرخون عند اشارتهم الى مقتل شجر الدر أولى سلاطين هذه الدولة التى عثر عليها فى أحد الخنادق أسفل القلعة وليس عليها سوى سراويل شد الى وسطها بواسطة تكة « استولى عليها بعض أراذل العامة[٣٨٨] » . وما ذكره المقريزى من أن السلطان الظاهر بيبرس قد قطع أيدى جماعة من نواب الولاة والمقدمين والخفراء ، لأنه رأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعراها

---

(٣٨٦) الشوكانى ، البدر الطالع ، جـ ١ ، ص ٢٨٤ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ورقة ١٨٨ أ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ورقة ٣٤١ أ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٣ ، ص ٣١٠ ؛ ابن شاكر ، فوات الوفيات ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

(٣٨٧) Ashtor, L'Evolution des prix, JESHO, IV, p. 42 ; Histoire des prix, p. 348.

(٣٨٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٩٢ .

سروالها(٣٨٩) ، كما روى أيضا فى أحداث عام ٧٤٢/١٣٤١ أنه أبيع سراويل زوجة الأمير أقبغا من عبد الواحد عقب مصادرته بمائتى ألف درهم فضة(٣٩٠) . وأشار أيضا المؤرخ ابن تغرى بردى أنه عثر لدى الوزير شمس الدين موسى على ما يزيد عن أربعمائة سروال كانت ملكا لزوجته(٣٩١) . هذه الاشارات تقوم دليلا دامغا على مدى شيوع اســتخدام هذا الزى طوال عصر المماليك وحسبنا أن نشير هنا الى أن السراويل قد جذبت انتباه الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر على عصر المماليك(٣٩٢) ، بل سجلوها لنا فى رسومهم النسائية التى زودوا بها كتب الرحلات التى تركوها لنا ــ وذهب بعضهم أيضا الى الأدعاء بأن هــذه السراويل النسائية كانت من الجلد المزين بأشغال التخريم وأن النساء كن يرتدين هذا الزى دون الرجال(٣٩٣) . ويفهم كذلك

---

(٣٨٩) أبو الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ج ١ ، ص ٤٧٢ ــ ٤٧٣؛ العينى ، عقــد الجمــان ، جـ ٢٧ ، ورقة ٩١أ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٤٠ .

(٣٩٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٣٩١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ١١١ .

(٣٩٢) Frescobaldi, Viggi, p. 95 ; Arnold von Harff, Pilgerfahrt, p. 106 ; Dopp, Le Caire Vu . . . , BSRGE, XXVI, p. 114.

(٣٩٣) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 233.

مما كتبه الفقيه المغربى ابن الحاج أن نساء عصره قـد اعتـدن ارتداء هذه السراويل خارج المنزل ، لأن يعيب عليهن بقائهن «فى بيوتهن ••• بغير سراويل ••• ولا يلبسن السراويل الا عنـد الخروج [٣٩٤] » • ومع هذا فقد شاع استخدام السراويل الى درجة أن أطلق عليها فى أواخر هذا العصر اسم «الباس[٣٩٥] » •

وجرت العادة أن ترتدى النساء فـوق هـذه السراويل قمصانا ، عدت أيضا كما يفهم من بعض قصص ألف ليلة وليلة من بين الملابس الداخليـة[٣٩٦] ، وكانت ترى غالبـا من تحت ملابسهن العلوية مما كان سببا فى غضب أولى الأمر فى الدولة المملوكية ، اذ حدث فى سنة ٧٥١/١٣٥٠ أثناء وزارة الأمير منجك أن وجد نوع خاص من القمصان انتشرت « موضته » انتشارا كبيرا وأطلق عليه اسم « بهطلة » وكان له ذيل طويل ينسـدل على الأرض وأكمام يبلغ اتسـاعها ثلاثة أذرع ومبلغ مصروفه ألف درهم فما فوق • فقام الوزير منجـك فى ابطالها ، وطلب والى القاهرة ورسم له بقطع أكمام النساء وأخذ ما عليهن ، وبعث أعوانه الى بيوت أرباب الملهى ـ حيث كان كثير من النساء ـ

---

(٣٩٤) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ •

(٣٩٥) Mayer, Costume, p. 70.

(٣٩٦) Mardrus, Le Livre des mille nuits, III, p. 60

فهجموا عليهن ، وأخذوا ما عندهن من ذلك وكبسوا أيضا مناشر الغسالين ودكاكين باعة الملابس النسائية وأخذوا ما فيها من قمصان النساء ، وقطعها الوزير منجك . ووكل مماليكه بالشوارع والطرقات ، فقطعوا أكمام النساء ، ونادى فى القاهرة ومصر بمنع النساء من لبس هذه القمصان ، وهدد بأنه متى وجدت امرأة عليها شىء مما منع ، أخرق بها وأخذ ما عليها .

ويروى لنا المؤرخون كيف اشتد الأمر على النساء ، وكيف تم القبض على عدة منهن ، وكيف أخذت أقمصتهن . بل أن الوزير منجك ذهب الى اقامة أخشاب على سور أبواب القاهرة ـــ الرئيسية ـــ باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح ـــ وعلق عليها تماثيل معمولة على صور النساء وعليهن القمصان الطوال ، يقصد ارهابهن وتخويفهن فانقطعت النساء عن الخروج الى الأسواق وعن ركوب حمير المكارية وكان اذا عثر على واحدة منهن كشف عن ثيابها فى الحال[٣٩٧] .

بيد أن هذا التحريم لم يستمر طويلا وعادت النساء من جديد الى ارتداء هذا النوع من الأقمصة الطويلة ذات الأكمام الواسعة مما اضطر الأمير كمشبغا نائب السلطنة عام٧٩٣/١٣٩١

---

(٣٩٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٨١٠ ؛ خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٢٣ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٩٣ .

أن ينتهز فرصة غياب السلطان برقوق من الديار المصرية ، وينادي بالقاهرة أن لا تلبس امرأة قميصا واسعا ، ولا تزيد على تفصيل القميص عن أربعة عشر ذراعا . وكان النساء قد بالغن في سعة القمصان ، حتى كان القميص الواحد يفصل من اثنين وتسعين ذراعا من البندقى الذى عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، فيكون مساحة القميص زيادة على ثلثمائة وعشرين ذراعا . وندب الأمير كمشبغا جماعة نزلوا الى أسواق القاهرة وشوارعها ، وقطعوا أكمام النساء الواسعة ، فأمتنع النساء من يومئذ ، أن يمشين بقمصان واسعة مدة نيابة الأمير كمشبغا ، ثم عدن الى ذلك بعد عودة السلطان[٣٩٨] « من بلاد الشام » ومع هذا فمن الخطأ الاعتقاد بأن القمصان التى صنعت طبقا لأوامر الأمير كمشبغا قد بطلت تماما ، اذ أن المؤرخ ابن تغرى بردى ظل يشاهد هذه الأقمصة التى عرفت بأسم « القمصان الكمشبغاوية » لمدة سنين عديدة ووصفها بأنها كانت ذات اكمام كالقمصان التى ترتديها البدويات[٣٩٩] .

---

(٣٩٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٧٥٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ١٢ ، ص ٣٠ ؛ العينى ، عقد الجمان ، حوادث سنة ١٣٩١/٧٩٣ ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ورقة ٩٩ ب ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ .

(٣٩٩) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٧٥٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٩ ، ص ٢٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٢ ، ص ٣٠ .

ويبدو أيضا أن الافراط فى اتساع أكمام القمصان وطولها قد امتد الى نساء الفلاحين . فقد روى أحد المعاصرين أن ملابس نساؤهم « على شكل الشعراء فى وسع الأكمام وزيادة فان كم المرأة منهن يسع الرجل يدخل منه ويخرج من الكم الثانى » وذكر أيضا أنه ربما جامع الرجل زوجته من كمها دون حاجة لرفع بقية الثوب ، كما حكى لنا أنه بعد زواجه بواحدة منهن ... « كثيرا ما جامع زوجته من كم قميصها[٤٠٠] !! » .

والى جانب القمصان الطوال ذات الأكمام الواسعة عرفت نساء عصر المماليك القمصان القصيرة الضيقة التى أطلق عليها اسم قنادير[٤٠١] ، اذ عاب ابن الحاج على نساء مصر فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى « تلك البدعة التى أحدثنها فى قمصانهن من جعلها ضيقة وقصيرة »، كما دعى معاصريه الى منع النساء من تلك الأكمام القصيرة التى أحدثتها مما يدل على أن قمصان النساء فى هذا العصر لم تظل فى شكلها على حال واحد[٤٠٢] ، بل غلب عليها كثرة التغيير والتبديل وظهور

---

(٤٠٠) الشربينى ، هز القحوف ، جـ ٢ ، ص ١١٥ .

(٤٠١) Frescobaldi, Visit, p. 163 ؛ أقبغا الخاصكى ، التحفة ، ورقة ١٣٤ أ .

(٤٠٢) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٠١ ، ٢٤١ .

المستحدثات « والموضات » كعهدنا بملابسهن اليوم . وقد أخذ بعض المعاصرين على النساء أن « لهن محدثات من المنكرأحدثها كثرة الارفاء والاتراف ، وأهمل انكارها حتى سرت فى الأوساط والأطراف فقد أحدثن ... من الملابس مالا يخطر للشيطان فى فى حساب[٤٠٣] » .

وفوق هذه الملابس الداخلية ارتدت المرأة نوعا من الزى الواسع عرف بأسم الثوب[٤٠٤] ، التى ضنت علينا المصادر الادبية والتاريخية بذكر أشكاله وأوصافه ، وان كان ابن الحاج قد عاب على نساء عصره ارتدائهن للأثواب القصيرة ذات الاكمام القصيرة المتسعة التى تظهر الصدور والنهود ، وتركهن لبس السراويل « والوقوف على هذه الحالة فى باب الريح وعلى الأسطح وغيرها فمن رفع رأسه أو التفت رأى عورتها[٤٠٥] » . وهذا يعنى ببساطة أن نساء عصر المماليك قد عرفن « المينى جيب » قبل نساء عصرنا الحالى بما يقرب من ستة قرون من الزمان رغم ما عرف به هذا العصر من حجاب المرأة والتشدد على عزلتها .

---

(٤٠٣) ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص ١٥٧ .

(٤٠٤) Mayer, Costume, p. 70.

(٤٠٥) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ .

وكانت المرأة تلتف جميعها بملاءة أو سبلة متسعة فضفاضة عرفت بعدة أسماء متعددة نذكر منها البغلطاق والمرط والحلة والفرجيـة والكاميليـة والملحفـة والشـاية أو السـاية والأزار الذى كان أكثـر السبلات شيوعا(٤٠٦) . وهو عبـارة عن ملاءة طولها حوالى ثلاثة أذرع وعرضها يقـرب من ذراعين وغالبا ما توقفت مقاييس هذه الأزر على حجم المرأة وعلى مدى طولها أو قصرها(٤٠٧) . ويمكن التعرف بسهولة على هذا النوع من الملابس النسائية من خلال احدى اللوحات الفنية للرسـام الايطالى بلينى ، تمثل القديس سان مارك يعظ فى احدى كنائس الاسكندرية وترجع الى سنة (١٤٦٠ ــ ١٥٠٠)(٤٠٨) .وتحدثنا المصادر التاريخية أن هذه الأزر كانت تصنع فى بداية القـرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى من الحرير ، فقد روى المقريزى أن نساء هذا العصر قد أحدثهن الازار الحرير بألف درهم ، وأنهن أبطلن لبس الأزار البغدادى مما اضـطر أهـل الدولة الى العمل على ابطال الأزر الحريرية والمنادة بمنع بيعها، بل وتهديد المخالف بمصادرة جميع أمواله لحسـاب السـلطان حتى امتنعت النساء عن لبس الأزر الحريرية لدرجة أنه نودى

---

(٤٠٦) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pp. 236-237.

(٤٠٧) Dozy, Vêtements, pp. 25, 28 ; Mayer, Costume, p. 70.

(٤٠٨) André Chastel, Italie renaissance, pl. 13

على أزار من الحرير بمبلغ ثمانين درهما ، ومع ذلك فلم يلتفت له أحد رغم لهفة نساء هذا العصر على هذا النوع من الملابس الحريرية[٤٠٩] .

بيد أن هذا التحريم لم يستمر كما هو معتاد فترة طـويلة من الزمان ، لأن الرحالة الأجانب الذين وجدوا فى مصر على عصر المماليك أشاروا فى كتب الرحلات التى خلفوها لنا ، الى ارتداء المرأة المصرية للأزر الحريرية الفاخرة والى مدى اقبالها على هذا النوع من الثياب الباهظة الثمن ، ووصفوا هذه الأزر بأنها كانت بيضاء اللون لجميع المسلمات[٤١٠] ، وهذا يخالف ما تطور اليه الوضع بعد ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى عنـدما أصبح من المراعى فى تزييره المرأة المتزوجة أن تكون سـوداء اللون ولا تلبس السبلة البيضاء سوى الآنسات[٤١١] تميزا لهن عن المتزوجات .

أما عن نساء أهل الذمة فقد كان لزاما عليهن ارتداء أزر ذات ألوان متميزة ، فكانت المسيحيات تلبسن أزر ذات لـون

---

(٤٠٩) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٢٣ ؛ السلوك ، جـ ٢ ، ص ٨١١ .

(٤١٠) Schefer, Voyage magnifique, p. 211.

(٤١١) كلوت بك ، لمحة عامة ، جـ ١ ، ص ٦١٢ .

أزرق ، واليهوديات ذات لون أصفر ، والسامريات ذات لون أحمر . وكان من الضرورى أن يشد عليها بحزام أو بزناركماكان يسمى فى ذلك الوقت ، وقد روعى أن يكون من ألوان متنوعة ووفق اللون المخصص لكل طائفة فمثلا كان الأصفر لليهوديات، والأزرق للمسيحيات ، والأحمر للسامريات . على أنه من الواضح ان هذه القيود فى الزى لم تفرض على الذميات من النساء الا فى أوقات الأزمات فقط ، ولا يوجد فى المصادر المعاصرة ما يثبت الزامهن بالقيود السابقة فى الملبس فى الأوقات العادية ، بل على العكس هناك ما يشير الى تمتعهن بلبس أفخر الثياب وأجمل الأزياء دون تفرقة بينهن وبين المسلمات . فقد وصف أحد المعاصرين نساء أهل الذمة فى أيامه بأنهن «اذاخرجن من دورهن ومشين فى الطرقات فلا يكدن يعرفن ، وكذلك فى الحمامات . وربما جلست النصرانية فى أعلى مكان من الحمام والمسلمات يجلسن دونها . ويخرجن الى الأسواق ، ويجلسن عند التجار ، فيكرموهن بما يشاهدون من حسن زيهم فلايدرون انهن أهل ذمة ...(٤١٢) » .

والواقع ان ملابس النساء فى مصر المملوكية كانت تتأثر بمختلف الحوادث السياسية والاكتشافات الأثرية تماما كما

---

(٤١٢) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ٤٣ .

حدث فى أوربا وأمريكا عند ما عرضت تحف توت عنخ آمون ـ فلم تترك نساء مصر المملوكية حادثة تمر دون أن يسجلنها فى أزيائهن ومن ذلك انه اكتشفت فى أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى بالجهة الشرقية من القاهرة عمودان كبيران من الرخام الأبيض بقصر الزمرد أحد قصور الفاطمية وكان لاكتشافها ضجة فى القاهرة حيث تجمع الناس من كل صوب وحدب لمشاهدة هذين العمودين . وكان هذا اليوم من الأيام المشهورة فى القاهرة ووصفه الشعراء فى قصائدهم وأبقى له النساء ذكرى ثيابهن فاخترعن زى « جر العمود » وشاع هذا الزى بين النساء وعملن نماذج من ثياب الحرير وتطريز المناديل، فقد ذكر المقريزى ما نصه : « وعملوا نموذجات من ثياب الحرير وتطريز المناديل عرفت بجر العمود[٤١٣] ... وشاع هذا الزى فى مصر وأقبل النساء عليه وكانت أزرهن رفيعة جدا تشبه العمدان فى طولها وعم استعمالها عندهن جميعا » ، مما جعل العلماء لا ينظرون اليها بعين الرضى لأنها كانت تكسب الجسم جمالا وروعة وكثيرا ما تكشف عن تفاصيله .

واستعملت المرأة على عصر المماليك أغطية للرأس ذات أشكال وأنواع متعددة أهمها جميعا العصابة التى كانت تلف

---

(٤١٣) المقريزى ، خطط ، ص ٤٥٠ .

كالعمامة حول جزء من الازار الذى كان يغطى شعر المرأة(٤١٤) ويرجح أنها كانت تشبه فى هيئاتها أغطية الرأس التى تستعملها البدويات فى وقتنا الحالى • وكثيرا ما تدخلت الدولة لتحديد أشكال هذه العصائب مثلما حدث سنة ٨٧٦/١٤٧٢ عندما رسم السلطان قايتباى ليشبك الجمالى المحتسب بأن ينادى فى القاهرة : « بأن امرأة لا تلبس عصابة مقنزعة ، ولا سراقوش حرير ، وأن تكون ورقة العصابة طولها ثلث ذراع ، وهى بختم السلطان من الجانبين ، وكتب بذلك قسائم على من يبيع أوراق النساء ••• وصارت رسل المحتسب يطوفون فى الأسواق ، فان وجدوا امرأة بعصابة مقنزعة أى قصيرة أو سراقوش يضربونها ، ويجرسونها والعصابة معلقة فى رقبتها ، فقلقن النساء من ذلك ، وصارت الأمرأة اذا خرجت الى حاجة تكشف رأسها وتمشى بلا عصابة ، أو تلبس عصابة طويلة ، فلما طال عليهن الأمر لبسن العصائب الطوال التى رسم بها السلطان ، يلبسونها اذا خرجن الى الأسواق فقط على كره منهن ، ويلبسن العصائب المقنزعة فى بيوتهن » • ولعله من الطريف أن نشير هنا الى تلك الأبيات التى أنشدها فى هذه المناسبة الأديب زين الدين بن النحاس أحد شعراء هذا العصر الذى قال :

---

(٤١٤) Mayer, Costume, p. 71 ; Ashtor, Les prix dans l'Egypte, JESHO, VI, p. 171, note (1) ; Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 238.

أمر الامام مليكنا بعصايب   فى لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطعنه ولبسنها   ودخلن تحت عصايب السلطان

والواقع ان هذا المنع لم يستمر طويلا ثم رجعت النساء الى ما كانت عليه من لبس العصائب القصيرة والسراقوش « ولم يلتفتن الى تحجير السلطان عليهن فى ذلك[٤١٥] » .

وكثيرا ما كانت هذه العصائب تطرز بالزخارف الجميلة وتزين بالذهب واللؤلؤ كما كان الحال بالنسبة لعصائب نساء طبقة المماليك التى أفاض المؤرخون فى الكلام عنها وفى الأشارة اليها ويكفينا أن نسجل ما وراء أولئك الكتاب بصدد عصابة اتفاق التى « اشتهرت عند الأمراء وشنعت قالتها ، فانه قام بعملها ثلاثة ملوك : الصالح اسماعيل ، والكامل شعبان والمظفر حاجى وتنافسوا فيها ، واعتنوا بجواهرها ، حتى بلغت قيمتها زيادة على مائة ألف دينار مصرية[٤١٦] » .

---

(٤١٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ ؛ الجوهرى ، انباء الهصر ، ورقة ١٥٤ أ .

(٤١٦) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤٧٣ ، ٧٢٥ ؛ جـ ٣ ، ص ٨٧٠ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٣٤٨ ؛ الشوكانى ، البدر الطالع ، جـ ١ ، ص ١٨٧ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ .

كذلك حرصت النساء على استعمال الشاش كنوع من أغطية الرأس ، وهو عصبة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها عند ظهرها . ويكون شكلها العام مثل سنم الجمل ، فيبلغ طولها نحو ذراع وارتفاعها ربع ذراع[٤١٧] ، وكثيرا ما كن يبالغن فى زخرفتها بالذهب واللؤلؤ . وقد أشار المؤرخ ابن تغرى بردى الى هذا الشاش بقوله : « وقد رأيت أنا هذا الشاش المذكور وكان على صفة الحلى الذى ، تحلى به العروس بل كان أكثر تعبا فى تعديله[٤١٨] » .

ومن أغطية الرأس التى شاع استعمال النساء لها على عصر سلاطين المماليك ، العمامة التى كانت بمثابة زى للرجال والنساء على السواء بدليل ذلك المرسوم الذى أصدره السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٢/١٢٦٣ وأمر فيه بأن ينادى فى مصر والقاهرة « بأن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيا بزى الرجال » وهددت كل من فعلت ذلك بعد مرور ثلاثة أيام من صدور هذا النداء ،

---

(٤١٧) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٣٤ ؛ العينى ، تاريخ البدر ، ورقة ١٢٣ أ ؛ ابن قاضى شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ، ورقة ١٠ أ .

(٤١٨) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٢ ، ورقة ٤٥ ب ، ٤٦ أ .

بسلب كل ما عليها من كسوة وملابس[٤١٩] . ولكن من الواضح أن هذا النداء لم يحترم طويلا شأنه فى هذا شأن بقية النداءات الأخرى التى أصـدرتها الدولة المملوكية ، والتى هدفت بهـا التحكم فى أشكال وأنواع ملابس نساء العصر ، اذ يعيب الفقيه ابن الحاج على نساء عصره فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، استعمالهن للعمائم التى على هيئة سنم الهجين المزدوج[٤٢٠] .

والى جانب هـذه الأنواع المتعـددة من أغطيـة الرأس النسائية ، شاع أيضا استخدام الشربوش وهو أشبه بالتاج ، مثلث الشكل ، كان يجعل على رأس المرأةبغير عمامة[٤٢١] . وقد أشـار المقريزى الى سـوق الشرابشيين فقـال : « وهـذا السوق مما أحدث بعد الدولة الفاطمية . ويباع فيه الخلع التى

---

(٤١٩) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهـر ، جـ ٣ ، ص ١٠٠٧ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٠٣ ؛
Sadeque, Baybars the frist, p. 90

(٤٢٠) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٤٢ .

(٤٢١) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٩٩ ؛ السلوك ، جـ ٣ ، ص ٦٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣٥١ ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ورقة ٨٦ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ ٩ ، ص ١٤٥ ؛
Dozy, Vêtements, p. 220.

يلبسـها السـلطان للأمراء والوزراء والقضـاه وغيرهم ...
وعرف بالشرابشيين نسبة الى الشرابيش المذكورة . وقد بطـل
الشربوش فى الدولةالجركسية ـ أى فىالعصرالمملوكى الثانى ـ
وحل محله الطواقى ذات الألوان الخضراء والحمراء والزرقاء
التى أقبل الرجال والنساء على ارتدائها على رؤسهم بغيرعمامة.
وكانت ترتفع فى بادىء الأمر نحو سدس ذراع ويبدو جزئهـا
العلوى مدورا مسطحا . بيد أنها لم تلبث أن تطـورت بعض
الشىء على عهد السلطان فرج بن برقوق وأصبح ارتفاع عصابة
الطاقية منها نحو ثلثى ذراع ، وأعلاها مدور مقبب ، وبولغ فى
تبطينها بالورق والكثير فيما بين البطانة المباشرة للرأس والوجه
الظاهر للناس ، وجعل من أسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو
القرض الأسود المعروف باسم القدنس فى عرض نحوثمن ذراع» .
وقد ذكر لنا المقريزى سبب اقبال نساء المماليـك على هـذه
الطواقى الجركسية فقال : « أنه نشـأ فى أهل الدولة محبـة
الذكران . فقصد نساؤهم التشـبه بالذكران ليسـتلمن قلوب
رجالهن ، فاقتدى بفعلهن فى ذلك عامة نساء البلد ، كما حاول
تبرير استعمال النساء لهذه الطواقى بما حدث بالناس من الفقر
وما نزل بهم من الفاقة فى ذلك العصر الأخير مما اضطر النسـاء
الى ترك لبس الذهب والفضة والجواهر ولبس الحرير ، ولبسن
هذه الطواقى » ، غير أنه سرعان ما ناقض نفسه عندما أشار الى

مبالغة النساء فى عملها من الذهب والحـرير وتواصـيهن على لبسها(٤٢٢) .

ويبدو أن هذا الأسراف من جانب النساء دفع أهل الدولة الى التدخل من جديد للحد من استعمال هذه الطواقى . فقـد أشارت المصادر الى تحريم ناصر الدين بن شبل استعمال هـذه الطواقى عقب توليه وظيفة محتسـب القـاهرة ، سنة ٨٣٠ / ١٤٢٧(٤٢٣) . على أنه من الممكن التماس بعض العـذر لعـامة النساء فى مثل التصرفات السابقة . فالمجتمع المصرى فى العصر المملوكى سار وفق النظام الذى نعرفه اليوم فى مجتمعنا الحديث، وهو أن كل طبقة فى المجتمع مولعة دائما ابدا بمحاكاة من تعلوها من الطبقات ، وبعبارة أخرى فان المستحدثات التى نطلق عليها اسم « الموضات » تنتقل دائما من أعلى الى أسفل . وقد شـهد المؤرخون أكثر من مرة بأن ما فعلته عامة النساء فى الملبس انما كان من باب التشبه بما فعلته زوجات السلاطين ونساء الامراء ومن ذلك ما رواه المقريزى فى حوادث سنة ٧٥١/١٣٥٠ من تشبه نساء القاهرة بالخواتين من نساء السلاطين وجواريهن ، كما حدثنا فى وقائع سنة ٧٩٣/١٣٩١ كيف أن نساء السلاطين

---

(٤٢٢) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ١٠٤ .

(٤٢٣) Mayer, Costume, p. 72.

وجواريهن أحدثن ثيابا طوالا تحسب أذيالها على الأرض وكيف « فحش فى هذا حتى تشبه عوام النساء فى اللبس بنساء الملوك والأعيان[٤٢٤] » .

على أية حال فنحن نجهل الوقت الذى استغرقه تحريم ناصر الدين بن شبل لهذه الطواقى الجركسية ، لكن من المرجح أنها قد استبدلت بنوع من الطراطير الطويلة . فقد أشار الرحالة الألمانى أرنولد فون هارف الذى زار مصر فى أواخر العصر المملوكى ، الى أن النساء كانت تضع شيئا طويلا فوق رؤوسهن على هيئة القدح أو الكأس الكبير ملفوفا بقماش ثمين وذو زخارف بديعة[٤٢٥] ، وان كان الرسم التوضيحى الذى زود به هذا الرحالة مؤلفه يبدو خاليا من هذه الرسوم والزخارف[٤٢٦] . وأغلب الظن أيضا استمرار استعمال النساء لهذا النوع من أغطية الرأس الى ما بعد القضاء على النفوذ المملوكى ، لأن الرحالة الفرنسى بيير بلون الذى زار مصر بعد الفتح العثمانى لها بعدة سنوات أشار أيضا الى استعمال النساء لنوع من أغطية الرأس يشبه الى حد كبير ذلك النوع الذى

---

(٤٢٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٨١٠ ؛ جـ ٣ ، ص ٧٥٠ .

(٤٢٥) Letts, Pilgrimage, p. 124.

(٤٢٦) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. VII.

سبق لأرنولد فون هارف أن أمدنا بأوصافه وسجله لنا فى أحد رسوم رحلته الحافلة[٤٢٧] .

كذلك عرفت نساء مصر على سلاطين المماليك البخنق[٤٢٨] وهو نوع من أغطية الرأس الصغيرة الحجم التى اشتد اقبال النساء عليه وكان يصنع من القماش الهرمزى[٤٢٩] . وقد حدثنا المقريزى عن سوق البخانقيين بمدينة القاهرة فروى أنه « معمور الجانبين بالحوانيت المعدة لبيع الكوافى والطواقى التى تلبسها الصبيان والبنات » . كما أشار الى أنه كان بظاهر هذا السوق ، عدة حوانيت لبيع الطواقى وعملها [٤٣٠] .

وترد أيضا فى المصادر المملوكية المعاصرة أسماء الحجب المختلفة التى كانت تضعها النساء فوق وجوههن ، وهى مناديل كانت تستعمل لاخفاء الوجه ، اذ لم يكن باستطاعة المرأة فى تلك الفترة أن تطوف شوارع المدينة بغير حجاب ، الا اذا كانت من بين الجاريات المخصصات للخدمة فى المنازل والقصور فقد

---

(٤٢٧) Belon, Observations, p. 106 ; Carré, Voyageurs, I, p. 7 Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. X/A.

(٤٢٨) Dozy, Vêtements, p. 55

(٤٢٩) Ashtor, Histoire des prix, p. 351.

(٤٣٠) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .

روى أن عمر بن الخطاب رأى جارية عليها قناع فضربها بالدرة وقال : « اتتشبهين بالحـرائر !![٤٣١] » وقـد كان يومئذ من لباسهن .

وأهمها جميعا المقنعة التى عرفت أيضا باسم القناع[٤٣٢] والتى كانت تصنع غالبا من قماش الموسلين وتثبت تحت ازار المـرأة بعد أن تلف بها وجههـا تماما[٤٣٣] . والطـرحة التى كانت توضـع على الرأس وتنسـدل على الوجه فتخفيه عن أعين الفضـولين من الرجـال[٤٣٤] . ويفهم من كتابات أحد المعاصرين أن هذين النوعين من الحجب قد استجدا على عصر السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون وأن شمنهما كان يبلغ العشرة آلاف دينار وربمادون ذلك[٤٣٥] . وروى آخر أن

---

(٤٣١) ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

(٤٣٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤٣٣ ، حاشية (١) ؛ ابن الحاج ، المدخل ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ؛ Ashtor, Histoire des prix, p. 172 ; Serjeant, Islamic textiles, AI, X, p. 76 ; XI-XII, pp. 105, 114, 117 ; XV-XVI, p. 78.

(٤٣٣) Dozy, Vêtements, p. 376.

(٤٣٤) Dozy, Vêtements, p. 257 ; Serjeant, Islamic textiles, AI, XI-XII, p. 142 ; XIII-XIV, p. 103 ; Ashtor, L'Evolution des prix, JESHO, IV, p. 41.

(٤٣٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٣٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٧٦ .

الأمير تنكز نائب الشام قدم لابنته زوجة السلطان المذكور مقنعة وطرحة بسبعة آلاف دينار[٤٣٦] • الأمر الذى يدل على أن هذا النوع من الحجب كان قاصرا على نساء الطبقة الحاكمة ونعنى بها طبقة المماليك •

ويحدثنا أحد الرحالة الأجانب عن استخدام نساء مصر المملوكية لنوعين آخرين من الحجب ، الأول عبارة عن منديل أبيض وأسود يطلق عليه عادة اسم البرقع وكان يغطى الوجه الى ما تحت العينين[٤٣٧] وقد شاع استخدامه بين عامة النساء ومن ثم فقد حرص فنانى عصر المماليك على اثباته على منتجاتهم الفنية التى احتوت على بعض رسوم النساء مثل تلك الرسوم التى تزين مخطوطة الترياق المحفوظة بالمكتبة الأهلية بفينا[٤٣٨] ، والتى تزين مخطوطة دعوة الأطباء لابن بطلان[٤٣٩] • كذلك

---

(٤٣٦) المقريزى ، جـ ٢ ، ص ٤٣٣ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ورقة ١٩٣ أ .

(٤٣٧) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٦٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٢٩ ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ورقة ٨٤ ب ؛

Mayer Costume, p. 73.

(٤٣٨) بشر فارس ، كتاب الترياق ، لوحة ١٢ .

(٤٣٩) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. XII/A.

يمكن مشاهدة البرقع فى احـدى لوحات الرسام الايطـالى يلينى[٤٤٠] التى سبق لنا الاشارة اليها .

أما النوع الثانى فهو أشبه بشبكة سوداء كانت تغطى الوجه كله[٤٤١] وقد اقتصر استعمالها على نساء الطبقة الراقية وعلى نساء الأثرياء ، وهى تبدو بوضوح فى الرسوم النسائية التى تركها لنا الرحالة الايطالى أرنولد فون هارف فى سجل رحلاته ، وفى احدى روائع الفنان الايطالى كاريتشيو المحفوظة بمتحف جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية[٤٤٢] .

ومن الحجب التى شـاعت بين عامة النسـاء نـذكر النقاب[٤٤٣] . وهو عبارة عن قناع أسود اللون أكتفى فيـه يعمل فتحتان للعينين[٤٤٤] . ويفهم من كتب الرحالة الأجانب المعاصرين أن استعمال هذا النقاب قد امتد الى نساء بدو مصر وفى هذا خير دليـل على شعبيته وتفسير لعدم ظهـوره على

---

(٤٤٠) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. VIII/A.

(٤٤١) Mayer, Costume, p. 73 ; Arnold von Harff, Pilgerfahrt, p. 106.

(٤٤٢) Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, pl. VII, IX.

(٤٤٣) Ashtor, Histoire des prix, p. 325.

(٤٤٤) Dozy, Vêtements, p. 424 ; Mayer, Costume, p. 73

المنتجات الفنية المتعلقة بعصر المماليك التى احتوت على بعض الرسوم النسائية .

ننتقل الآن الى الحديث عن أحذية النساء فى العصر المملوكى التى يفهم من المصادر المعاصرة أنها كانت تطابق فى أشكالها وخفتها وفخامتها أحذية الرجال المعروفة باسم خف ، والتى كانت تصنع عادة من جلد ملون[٤٤٥] ويغالى فى زخرفتها وتزيينها حتى أطلق عليها بعض مؤرخى تلك الفترة اسم « الأخفاف المثمنة[٤٤٦] » . ولعله من المناسب ونحن بصدد الكلام عن أخفاف النساء أن نذكر أن المرأة الذمية كثيرا ما ألزمت على عصر المماليك بأن تلبس خفين احدهما أسود والآخر أبيض تمييزا لها عن أختها المسلمة[٤٤٧] .

وكان يلبس فوق هذه الأخفاف أحذية قصيرة تعرف باسم « سراموزة » وهى تعنى النعل وأصلها فارسى معناه رأس الخف

---

(٤٤٥) Arnold von Harff, Pilgerfahrt, p. 106.

(٤٤٦) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٢٢ ؛ السلوك ، جـ ٢ ، ص ٨١٠ — ٨١١ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ١٩٣ .

(٤٤٧) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٩٢٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ٢٥٠ ؛ القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٨٤ .

وقد وصفها لنا شرف بن أسد المصرى أحد أدباء عصر المماليك وصفا طريفا فقال : « وأسألك أيها المولى أن تتحفنى بسرموزه أنعم من الموزة ، وأقوى من الصوان ، وأطول عمرا من الزمان ... لا يتغير وشيها ... جلدها من خالص جلود الماعز ... ولعلها من جلد الأفيلة الخمير ، لا الفطير !![٤٤٨] » وهى كانت تخلع عند دخول المنزل ولا تلبس الا خارجه .

وعرف هذا العصر أنواعا أخرى من الأخفاف التى كانت تلبس أيضا فى الشوارع منها « المداس[٤٤٩] » الذى أشارت اليه المصادر المملوكية من حين لآخر ، خاصة عندما كان يستخدم بمثابة سلاح عندما ترغب بعض سوقة النساء فى التعبير عن غضبها ضد احدى الضحايا من الرجال أو من النساء ممن يقعوا بين أيديها[٤٥٠] ، والسقمان وهو خف ثان يلبس فوق خف آخر . وكان يصنع من جلد بلغارى أسود ويلبسه النساء والجنود والأمراء وكذلك السلاطين[٤٥١] ، والأوطية المرصعة

---

(٤٤٨) ابن شاكر ، فوات الوفيات جـ ١ ، ص ٣٨٢ ؛ المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ ؛ أقبغا الخاصكى ، التحفة ، ورقة ٨٢ ب .

(٤٤٩) Dozy, Vétements, p. 186.

(٤٥٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٤٦ .

(٤٥١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٧ ، ص ٣٣١ ؛ المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

التى استجدتها نساء طبقة المماليك على عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى[٤٥٢] .

وكانت نساء عصر المماليك تحصلن على جميع مايلزمهن من الأحذية والأخفاف من سوق الأخفافيين الذى شيده الأمير يونس النوروزى دوادار السلطان الظاهر برقوق بعد سنة ١٣٧٨/٧٨٠ ونقل اليه جميع الأخفافيين وبياعى أخفاف النساء[٤٥٣] .

بقى أن نشير الى « القباقيب » الخشبية التى كانت تمتاز بقوائمها المرتفعة التى تبلغ فى بعض الأحيان مايقرب من التسع بوصات[٤٥٤] ، والتى كثيرا ما كانت مرصعة بالذهب والأحجار الكريمة أو بالصدف أو العاج أو الأبنوس وقد تكون أيضا مزينة برسوم اللاكيه[٤٥٥] . وكانت النساء تستخدم هذه

---

(٤٥٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٣٦ .

(٤٥٣) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ .

(٤٥٤) Lane, The Modern Egyptians, p. 46 ; Dozy, Vêtements, p. 347

(٤٥٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٨١٤ ؛ جـ ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ ؛ أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل ، ص ٥٣ .

« القباقيب » عند الاستحمام وفى بعض الأحيان فى المنازل كوسيلة للكشف عن مفاتن أقدامهن التى كثيرا ما كانت تنقش بأشكال بديعة من الحناء(٤٥٦) .

والواقع أن هذه القباقيب قد لعبت دورا محزنا فى تاريخ نساء عصر المماليك ، عندما ضربت شجر الدر ، أولى سلاطين هذه الدولة بالقباقيب حتى الموت على أيدى جاريات زوجها عز الدين أيبك الذى كان قد سبق لشجر الدر أن اغتالته أيضا بالقباقيب(٤٥٧) .

ولعله من المناسب أن نختم دراستنا هذه عن المرأة فى مصر المملوكية بالاشارة الى بعض أسعار هذه الملابس النسائية حتى يمكننا التعرف على مدى التكاليف الباهظة التى ألزمت بها نساء هذا العصر أزواجهن وآبائهن وغيرهم من المسئولين عنهن . اذ أنه من الخطأ البين الأعتقاد بأن تلك الملابس كانت بسيطة التكاليف زهيدة الأسعار فقد احتفظت لنا المصادر

---

(٤٥٦) Lane, The Modern Egyptians, p. 64 ; Dozy, Vêtements, p. 348.

(٤٥٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٩٢ ؛ الجزرى ، حوادث الزمان ، ورقة ١٣٤ ب ؛
Mayer, Costume, p. 73.
Devonshire, L'Egypte musulmane, p. 74.

التاريخية ببعض التفاصيل القليلة بصدد الأثمان الباهظة التى كانت تدفع فى هذه الملابس . اذ روى المقريزى فى أحداث سنة ١٣٤١/٧٤٢ أن سراويل زوجة الأمير أقبغا من عبد الواحد قد بيعت بمائتى ألف درهم فضة أى ما يعادل نحو عشرة آلاف دينار ، كما بيع لها قبقاب وخف نسائى وسرموجة بخمسة وسبعين ألف درهم(٤٥٨) . ويحكى أيضا أن مصروف قميص المرأة المعروف باسم البهطلة بلغ عام ١٣٥٠/٧٥١ ألف درهم فما فوقها ، وأن خف المرأة وسرموزتها خمسمائة درهم(٤٥٩) . بل لعل أكثر الأمثلة التى تبعث على الدهشة وتدل عى مدى التبذير فى شراء ملابس النساء هى القصة التى أوردها لنا المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى بشأن خوند جلبان زوجة السلطان الأشرف برسباى التى أنفقت مبلغ ثلاثين ألف دينار على ثوب واحد ، صنع خصيصا لها من أجل حفل ختان ابنها الملك العزيز يوسف ولى العهد(٤٦٠) . ويقص علينا المؤرخ ابن اياس أيضا ان تكاليف أحد أقمصة خوند زينب زوجة السلطان اينال قد فاقت

---

(٤٥٨) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥٦٤ .

(٤٥٩) المقريزى ، خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٢٣ ؛ السلوك ، جـ ٢ ، ص ٨١٠ — ٨١١ .

(٤٦٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٦ ، ص ٧٣٩ .

فى بعض الأحيان الاثنتى عشر ألف درهما[٤٦١] . كما يفهم من كتابات بعض المعاصرين أن أثمان الطرحة والمقنعة كانت تتفاوت بين الخمسة والعشرة آلاف دينار[٤٦٢] ، أما أغطية الرأس فقد وصلت فى بعض الأحيان الى المائة ألف دينـــار[٤٦٣] . كذلك نسمع عن ثلاثة قباقيب نسائية ، فيها اثنان مرصعان بالجوهر ، بلغت قيمتها فى غضـــون القرن الثامن الهجـــرى/الرابع عشر الميلادى ما يقرب من مائة وخمسون ألف درهم أى ما يساوى ثمانية ألف مثقال من الذهب[٤٦٤] .

---

(٤٦١) محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر ، ص ٥١ .

(٤٦٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ص ٥٣٦ ؛ ابن تغـــرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٧٦ ؛ المنهل الصافى ، جـ ٣ ، ورقة ١٩٣ أ .

(٤٦٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٢٥ ؛ الشوكانى ، البدر الطالع ، جـ ١ ، ص ١٨٧ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، جـ ٦ ، ص ١٥٢ .

(٤٦٤) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٣٤ ، حاشية (٨) .

ثبت المصادر والمراجع

١ ــ مصادر عربية مخطوطة

ابن أسباط الغربى ، تاريخ مصر ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨٢١ .

ابن بهادر ، فتوح النصر فى تاريخ مصر ــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٢٩ .

ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٨ ــ ٢٠٧٣ .

ابن الجوزى ، جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٦٧٣٩ .

ابن حبيب ، درة الأسلاك فى دولة الاتراك ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧١٩

ابن حجر العسقلانى ، ذيل الدرر الكامنة ــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤٩ تاريخ تيمور .

ابن دقماق ، الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والسلاطين ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٧٦٢ .

ابن دنيال الموصلى ، طيف الخيال فى معرفة خيال الظل ــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦ أدب .

ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٧٦ تاريخ .

ابن الشحنة ، الذيل من كتاب المنهل فى التواريخ ــ مخطوط ببرلين تحت رقم ٤١٢٥ .

ابن الشحنة ، روض المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٣٨ .

ابن الشحنة ، لسان الحكام فى معرفة الأحكام ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٩٣٥ .

ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٦٧ .

ابن قاضى شهبة ، الاعلام بتاريخ الاسلام ــ مخطوط باكسفورد تحت رقم ١٤٣ .

اقبغا الخاصكى ، التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطوط القاهرة ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٢٦٥ .

الاكرمى ، البسيط فى الشروط ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٩٣٣ .

الباعونى ، أرجوزة فى الخلفاء والسلاطين ــ مخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم ٢/١٥٥٠ .

الباعونى ، اللمحة الأشرفية والبهجة السنية ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٦١٥ .

البرزالى ، المقتفى لتاريخ الشيخ شهاب الدين أبو شامة ــ مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باسطنبول تحت رقم ٢٩٥١ .

البنبى ، العقود الدرية فى الأمراء المصرية ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٦٠٨ .

بيبرس الدوادار ، التحفة الملوكية فى الدولة التركية ــ مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٩ .

بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ــ مخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم ٢٣٣٢٥ .

التركمانى ، كتاب اللمع فى الحوادث والبدع ــ مخطوط ببرلين تحت رقم ١٦٨١ .

التيجانى ، تحفة العـروس ومتعة النفوس ـ مخطـوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٨٨٧ .

الجروانى ، الكوكب المشرق فيما يحتاج اليه الموثق ـ مخطـوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٠٤٧ .

الجزرى ، حوادث الزمان ـ مخطـوط بالمكتبة الأهلية ببـاريس تحت رقم ٦٧٣٩ .

الجعفرى ، بهجة السالك والمسلوك فى تاريخ الخلفاء والسلاطين والملوك ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٦٠٧ .

الجعفرى ، الجوهر الثمين فى أخبار الخلفاء والسلاطين ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٦١٧ .

الجوهرى ، أنباء الهصر فى أبناء العصر ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٩١ .

الخالدى ، ديوان الانشاء ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٤٤٣٩ .

الذهبى ، تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعـلام ـ مخطوط بمكتبة آياصوفيا باسطنبول تحت رقم ٣٠١٤ .

الذهبى ، العبر فى أخبار من غبر ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٨١٩ .

الذهبى ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٨٤ .

السخاوى (شمس الدين) ، الدرة المضيئة فى المآثر الاشرفية ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٦١٥ .

السخاوى (على بن احمد) ، تاريخ مصر ـ مخطوط مصور بمعهد المخطوطات بباريس تحت رقم ١٢٩ .

السقاعى ، تالى كتاب وفيات الأعيان ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦١ .

السيوطى ، اكآم المقيان فى أحكام الخصيان ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٨٠٠ .

السيوطى ، بلبل الروضة ــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠ .

السيوطى ، منتقى الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع ــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢١ .

الشجاعى ، تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنيه ــ مخطوط ببرلين تحت رقم ٩٨٣٣ .

الصديقى ، الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨٥٢ .

الصديقى ، قطف الأزهار من الخطط والآثار ــ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٦٥ .

الصفدى ، أعيان العصر وأعوان النصر ــ مخطوط بمكتبة طوبقاى سراى باسطنبول تحت رقم ٢١٤ ، ٢١٦ .

الصفدى ، الوافى بالوفيات ــ مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ٥٦٥ .

العمرى ، مسالك الابصار فى ممالك الامصار ــ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩ معرفة عامة .

العينى ، تاريخ البدر فى أوصاف العصر ــ مخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم ٢٢٣٦٠ .

العينى ، الشماريخ فى التواريخ ــ مخطوط باكسفورد تحت رقم ٦٠ .

العينى ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ مخطوط باسطنبول تحت رقم ٢٣٩١ ـ ٢٣٩٤ .

القيسرانى ، النور اللائح والدر الصادح فى اصطفاء مولانا الملك الصالح ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٠٨ .

مرعى بن يوسف ، نزهة النـاظرين فى من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨٢٧ .

المقدسى ، بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٤٥١ .

المقريزى ، المقفى ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢١٤٤ ، وبليدن تحت رقم ١٣٦٦ .

. . . ، نزهة الانسان فى ذكر تاريخ الملوك والأعيان ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٦٩ .

النويرى ، نهاية الارب فى فنون الأدب ـ مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٧٣ ، ١٥٧٧ ـ ١٥٧٩ ، ١٥٨٧ ـ ١٥٨٨ .

اليونينى ، ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ـ مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باسطنبول تحت رقم ٢٩٠٧ .

٢ ــ مصادر عربية منشورة

ابن الاخوة ، معالم القربة فى احكام الحسبة ، لندن ١٩٣٨ .

ابن الاكفانى ، نخب الذخائر فى أخبار الجواهر ، القاهرة ١٩٣٩ .

ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهـــور ــ طبعة بول كالة ومحمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ ــ ١٩٦٣ .

ابن اياس ، كتاب تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور فى وقائـــع الدهور ، بولاق ١٨٩٣ ــ ١٨٩٥ .

ابن بسام ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، بغداد ١٩٦٨ .

ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، باريس ١٩٦٨ .

ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهـــور فى مدى الأيام والشهور ، كاليفورنيا ١٩٣٠ ــ ١٩٤٢ .

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٠ ــ ١٩٧٢ ، وطبعة كاليفورنيا ١٩٠٩ ــ ١٩٣٦ .

ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى القاهرة١٩٥٦

ابن تغرى بردى ، مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة ، كمبردج ١٧٩٢ .

ابن تيمية ، مجموعة فتاوى ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

ابن الجيعان ، التحفة السنية باسماء البلاد المصرية ، القاهرة ١٨٩٨ .

ابن الحاج العبدرى ، المدخل ، القاهرة ١٩٢٩ .

ابن حجر العسقلانى ، انباء الغمر ، القاهرة ١٩٦٩ ــ ١٩٧٢ .

ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة ، حيدر آباد ١٩٢٩ ــ ١٩٣٢ .

ابن حجر العسقلانى ، رفع الاصر عن قضاة مصر ، القاهرة ١٩٥٧

ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العـــرب والبربر ، القاهرة ١٨٦٧ ــ ١٨٦٨ .

ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، القاهرة ١٨٩٣ .

ابن زنبل ، آخر المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .

ابن الزيات ، الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ، بولاق ١٩٠٧ .

ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، القاهرة ١٩٥١ .

ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، باريس ١٨٩٤ .

ابن طولون ، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، القاهرة ١٩٦٤ .

ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، رســالة دكتوراه لم تطبع محفوظة بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن .

ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ، القاهرة ١٩٦١ .

ابن عبد الظاهر ، السلطان الملك الاشرف خليل ، القاهرة ١٩٠٢ .

ابن عبدون ، رسالة جامعة لفنون نافعة فى شراء الرقيق وطلب العبيد ، القاهرة ١٩٥٤ .

ابن العماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ١٩١٢ ــ ١٩٣٣ .

ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، بيروت ١٩٣٦ ــ ١٩٤٢ .

ابن كثير ، البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ١٩٣٢ ــ ١٩٣٩ .

ابن الوردى ، تتمة المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ .

أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٩٠٧ ــ ١٩٠٨ .

احمد عبد الرازق ، دراسات فى المصـــادر المملوكية المبـكرة ، القاهرة ١٩٧٤ .

احمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل فى متحف الفن الاسلامى ، القاهرة ١٩٥٩ .

الادفوى ، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، القاهرة ١٩٦٦ .

أنور زقلمة ، المماليك فى مصر ، القاهرة ١٩٣٠ .

جمال محرز ، من التصوير الاسلامى فى القرن ٨ هـ / ١٤ م ـ كتاب الحيوان للجاحظ ــ مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة المجلد ١٤ (١٩٥٢) .

جمال محرز ، من التصوير المملوكى ــ نسخة من كتاب دعـــوة الأطباء لابن بطلان ــ مجلة معهد الدراسات العربية ــ القاهرة ١٩٦١ .

حسن الباشا ، الألقاب الاسلامية فى الوثائق والتاريخ ، القاهرة ١٩٦٠ .

حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العــــربية ، القاهرة ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ .

حكيم أمين عبد السيد ، قيـــام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ .

الدوادارى ، كنز الدرر أو الدر الفاخر فى سيرة الملك النـــاصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

الذهبى ، كتاب دول الاسلام ، حيدر آباد ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ .

الذهبى ، سير الاعلام والنبلاء ، القاهرة ١٩٥٧ ــ ١٩٦٢ .

زكى مبارك ، التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ، القاهرة ١٩٣٨ .

زينب فواز ، الدر المنثور فى ربات الخدور ، بولاق ١٣١٢ هـ .

السبكى ، كتاب معيد النعم ومبيد النقم ، لندن ١٩٠٨ .

السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ١٣٢٥ ــ ١٣٥٥ هـ .

السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، بولاق ١٨٩٦ .

سعاد ماهر ، عقود الزواج على المنسوجات الأثرية ، القاهرة ١٩٦٠ .

سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .

سعيد عبد الفتاح عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .

سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

سهير القلماوى ، ألف ليلة وليلة ، القاهرة ١٩٦٠ .

السيد الباز العرينى ، المماليك ، بيروت ١٩٦٧ .

سيرة الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٢٦ .

السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٨٨١ ــ ١٨٨٢ .

الشربينى ، هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، بولاق ١٨٩٠ .

الشعرانى ، لطائف المنن والأخلاق ، القاهرة ١٣١١ هـ .

الشعرانى ، لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهـود المحمدية ، القاهرة ١٣١١ هـ .

الشوكانى ، البدر الطالع بمحاسن من بعد ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .

الصيرفى ، نزهة النفوس والابدان فى تواريخ الزمان ، القـاهرة ١٩٧٠ ــ ١٩٧١ .

طاهر الطناحى ، الف ليلة وليلة ، القاهرة ١٩٥٨ .

عباس العقاد ، المرأة فى القرآن ، القاهرة (بدون تاريخ) .

عبد الحميد يونس ، خيال الظل ، القاهرة ١٩٦٥ .

عبد الله بن عبد الظـاهر ، الألطاف الخفية فى السـيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرفية ، ليبزج ١٩٠٢ .

عبد اللطيف ابراهيم ، دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر السلطان الغورى ، رسالة دكتوراه محفـوظة بمكتبة جامعة القاهرة .

عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، القاهرة ١٩٦٤ ــ ١٩٦٧ .

على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٤٨ .

عمر رضا كحالة ، أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام ، دمشق ١٩٥٩ .

العينى ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظـاهر ططر ، القاهرة ١٩٦٢ .

العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، القاهرة ١٩٦٨ .

القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٤ ــ ١٩٢٨ .

كمال سامح ، العمارة الاسلامية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٠ .

الكندى ، كتاب الولاة والقضاة ، ليدن ١٩١٢ .

محمد جمال الدين سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٠ .

محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .

محمد مصطفى ، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور لابن اياس ، القاهرة ١٩٥١ .

محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى ، القاهرة ١٩٤٦ — ١٩٦٢ .

مفضل بن ابى الفضائل ، كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ١٩١١ .

المقريزى ، السلوك فى معرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٧٢

المقريزى ، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ .

اليونينى ، ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، حيدر آباد ١٩٥٤ — ١٩٦١ .

٣ ـ المصــــادر الأجنبية

Abd Ar-Râziq (Ahmad),, Un document concernant le mariage des esclaves au temps des Mamlûks,, JESHO. III/3 (1970), pp. 309 — 314.

Abd Ar-Râziq, Les Peignes égyptiens dans l'art de l'islam, Syria, XLIX (1972).

Abd Ar-Râziq, Trois fondations féminines dans l'Egypte mamlouke, REI, XLI/I (1973).

Amar (Emile), La valeur historiques de l'ouvrage biographique intitulé al-Manhal as-Sâfî, Mélanges Hartwig Derenbourg. Paris : Ernest Leroux (1909), pp. 245 — 254.

Ashtor (Eliyahu), Le Coût de la vie dans l'Egypte médiévale, JESHO, III (1960), pp. 56 — 57.

Ashtor, l'Evolution des prix dans le Proche-Orient à la basse-époque. JESHO, IV (1961), pp. 15 — 46.

Ashtor, Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval. Paris, 1969.

Ashtor, Some unpublished sources for the Bahrî Period, Studies in Islamic History and Civilization, éd. Uriel Heyd. (Scripta Hiërosolymitana, IX). Jerusalem : Hebrew University, 1961, pp. 11 — 30

Ayalon (David), The Circassians in the Mamlûk Kingdom. JAOS, LXIX. — 1949 — pp. 135 — 147

Ayalon, L'Esclavage du Mamelouk. (Oriental Notes and Studies, no. 1). Jerusalem : Israèl Oriental Society, 1951.

Ayalon, Studies on the structure of the Mamlûks army, BSOAS, XV/2 (1953) pp. 203 — 228; XV/3 (1953), pp. 448 — 476; XVI/I (1954), pp. 57 — 90.

Balog (Paul), The Coinage of the Mamlûk sultans of Egypt and Syria, New — York, 1964.

Balog, History of the dirham in Egypt from the Fatimid conquest, to the collapse of the Mamlûk Empire, RN III (1961), pp. 109 — 146.

Belin (M.), Fetoua relatif à la condition des Zimmis, et particulièrement des chrétiens en pays musulmans depuis l'établissement de l'islamisme, jusqu'au milieu du 8e siècle de l'hegire, JA, XVIII (1851) ; XIX (1852).

Belon (Pierre), Les Observations de plusieurs singularités et choses mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie, et autres pays étrangers, Paris, 1838.

Berchem (Max Van) Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, I, Egypte, MIFAO, t. 19, Le Caire, 1894 — 1903.

Berchem, Matérieux pour un corpus inscriptionum arabicarum, II, Syrie, MIFAO, t. 43 — 44, Le Caire, 1922 — 1927.

Brockelmann (Carl), Geschichte des arabischen Litteratur, t. I — II, et 3 supplements éd. Leiden: E. J. Brill, 1945 — 1949.

Cahen (Claude), Les Chroniques arabes concernant la Syrie, l'Egypte, et la Mésopotamie de la conquête arabe à la conquête ottomane dans les bibliothèques d'Istanbul, REI, IV (1936), pp. 333 — 362.

The Cambridge history of Islam, t. I — II éd. P.M. Holt Ann K.S. Lambton et Bernard Lewis, Cambridge, 1970.

Carré (Jean-Marie), Voyageurs et écrivains Français en Egypte, I — II, Le Caire, 1956.

Chastel (André), Italie renaissance méridionalie, 1460 — 1500, s. d.

Darrâg (Ahmad), L'Egypte sous la règne de Barsbây, Damas, 1961.

Devonshire (R.L.) L'Egypte musulmane, Paris, 1926.

Djalâl (M.), Essai d'observations sur les rites funéraires en Egypte actuelle relevées dans certaines régions campagnardes: REI (1937), pp. 131 — 296.

Dopp (H.P.), Le Caire vu par les occidentaux du Moyen âge, XXIII (1950); XXIV (1951); XXVI (1953).

Dopp, Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte (1420), Paris 1958.

Dozy, Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845.

Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, t. I — II, Paris, 1966.

Encyclopédie de l'Islam Id. et 2e éd. (jusqu'à présent ont paru : t. I — II).

Ernst (Hans), Die mamlukischen sultansurkunden des Sinai — Klosters. Wiesbaden : Otto Harrassowitz, 1960.

Fabri (F.), Fratris felicis Fabri Evagatorium in Terram Sanctam, Arabiae et Aegypti peregrinationes, éd. C.D. Hassler, t. I — III, Stuttgart, 1843 — 1849.

Fahmy (Mansour), La condition de la femme dans la tradition et l'Evolution de l'islamisme, Paris, 1913.

Farès (Bishr), Le Livre de la thériaque, Le Caire, 1953.

La femme musulmane, ses droits et ses devoirs, Paris, s.d.

Fischel (Walter J.), Ascencus Barcoch, Arabica, VI (1959), pp. 57 — 74, 152 — 172.

Frescobaldi (L.), — Sigoli (S.) : Viaggi in Terrasanta, a cura di C. Angelini, Firenze, 1944. Visit to the holy places of Egypt. Sinai, Palestine and Syria in 1384 by Fres-

cobaldi, Gucci et Sigoli, translated from the Italian by the Bellorini. E. Hoade, Jerusalem, 1945.

Gaudrefroy-Demombynes (M.) La Syrie à l'époque des mamelouks, d'après les auteurs arabes. Paris, 1923.

Gérard de Nerval, Voyage en Orient. t. I, Paris 1964.

Goitein, A Mediterranean Society, t. I, Berkeley aur Los Angeles. 1967 .

Goitein, Sprichwöorter und Redensarten aus Zentral — Jemen, Leipzig, 1934.

Goitein, Slaves and slavegirls in the Cairo geniza records, Arabica IX (1962).

Gottheil — Worrel, Fragments from the Cairo Genizah in the Freer Collection, New — York, 1927.

Haarmann (Ulrich), Quellenstudien zur frühen Mamlukenzeit, Freiburg 1. Br.; D. Robischon, 1969.

Harff (Ritter Arnolds von Coln), Die Pilgerfahrt des durch Italien, Syrien, Aegyptien, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palastina, die Turkei; Frankreich und Spanien, Coln, 1860.

Heyd (W.) Histoire du commerce du Levant au Moyen Age, éd. française t. I — II, Leipzig, 1923.

Hautecoeur et Wiet, les Mosquées du Caire, Paris, 1932.

Jomier (J.) Le Mahmal et la Caravane égyptienne des pélerins de la Mecque, XIIIe — XXe siècles, Le Caire, 1953.

Kahle (Paul), The Arabic shadow play in Egypt, JRAS. (1940), pp. 21 — 24.

Kahle, A Gypsy woman in Egypt in the thirteenth century A.D. Journal of the Gypsy Lore society, Edinburg, XXIX (1950) pp. 11 — 15.

Labîb (Subhî), The Problem of the bid'a in the light of an arabic manuscript of the 14th. Century, JESHO, VII (1964), pp. 191 — 196.

Lane (Edward), The Manners and customs of the modern egyptians, London, 1966.

Lane-Poole (Stanley), Cairo, sketches of its history monuments and social life, London, 1892.

Lane-Poole, A History of Egypt in the middle ages, London, 1901.

Lane-Poole, Social life in Egypt, London, 1884.

Laoust (Henri), Les gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les premiers Ottomans (658 — 1156) (1260 — 1744), Traduction des Annales d'Ibn Tûlûn et d'Ibn Gum 'a, Damas, 1952.

Lapidus (**Ira M.**), Muslim cities in the later Middle A-ges, Cambridge, 1967.

Larrivaz (**F.**), Les saintes pérégrinations de Bernard de Breydenbach. Le Caire, 1904.

Lecerf (**J.**), Note sur la famille dans le monde arabe et islamique, Arabica, I (1956).

Letts (**F. S. A.**), The Pilgrimage of Arnold of Harff, London, 1946.

Little (**Donald**), An introduction to Mamlûk historio-graphy, Wiesbaden, 1970.

Lucas (**A.**), Ancient Egyptien materials and industries. London, 1962.

Malipiéro (**D.**), Annali Veneti, Archivio storico italia-no, VII, pt. 2. — (1843).

Mardrus (**J.C.**), Le livre des mille et une nuits, t. I — VIII, Paris, 1965.

Al-Masry (**Youssef**), Le drame sexuel de la femme dans l'Orient arabe, Paris, 1962.

Massignon (**Louis**), La cité des Morts au Caire, BIFAO, I — VII (1957), pp. 25 — 79.

Mayer (**L.A.**) Mamlûk Costume, Geneva, 1952.

Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford, 1933.

Milliot (**Louis**), Introduction à l'étude du droit musul-man, Paris, 1953.

Al-Munadjdjid (Salâh ad-Dîn), Le Manuscrit arabe jusqu'au Xe s. de l'H., tom. I, Le Caire, 1960.

Nainar (S.M.H.), Arab geographer's Knowledge of Southern India, Madras, 1942.

Pauty (E.), Les Palais et les maisons d'époque musulmane au Caire, Le Caire, 1932.

Pauty, Les Hammâms du Caire, Le Caire, 1933.

Pearson (J.D.), Index Islamicus, Cambridge, England, 1962 — 1967.

Pesle, La femme musulmane dans le droit, la religion et les moeurs, Rabat, 1946.

Piloti (E.), L'Egypte au commencement du XVe siècle, d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète, incipit 1420, avec une introduction et des notes par P.H. Dopp, Le Caire, 1950.

Popper (W.), Egypt and Syria under the Circassian sultans 1382 — 1468 A.D., systematic notes to Ibn Taghrîbirdî's chronicles of Egypt, t. XV — XV, Berkeley : University of California Press, 1955 — 1957.

Prost (Claude), Les revêtements céramiques dans les monuments musulmans de l'Egypte, le Caire, 1917.

Quatremère (M.), Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte, t. I — II, Paris 1844 — 1845.

Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. t. I — XVI, Le Caire.

Revan (E.), Mohamet et les origines de l'Islamisime, Revue de deux-monds, décembre 1851.

Rice (D.S.), Blazons of Mamluk ladies. BSOAS. (1951) pp. 573 — 578.

Sadeque (S.E.), Baybars the first of Egypt. Oxford, 1956.

Sauvaget (Jean), Noms et surnoms des mamelouks. JA. CCXXXVIII (1950) pp. 31 — 58.

Schefer (C.), Le Voyage d'Outremer de Jean Thenaud, Paris, 1864.

Schefer, Voyage du magnifique et très illustre chevalier Domenico Trevisan, Paris 1864.

Schregle (Götz), Die sultanin von Ägypten : Sagarat ad-Durr in der arabischen Geschichtsschreibung und Literatur. Wiesbaden, 1961.

Serjeant (R.B.), Material for the history of Islamic textiles, AI (1942 — 1945), IX, pp. 54 — 95; X, pp. 71 — 104; XI, pp. 98 — 105; XIII — XIV, pp. 75 — 117, XV — XVI, pp. 29 — 86.

Sourdel (D. et J.), Civilisation de l'Islam classique, Paris, 1968.

Strauss (E.), A History of the Jews in Egypt under the rule of the Mamluks, t. I — II, Jerusalem 1944 — 1951.

Tafur (Pero). Travels and adventures. London, 1926.

Uzzano (Giovanni di Antonio), La pratica della mercatura, dans Pagnini, Della decima, IV, Lisbonne — Lucques. 1766.

Wiet (G.). Les Biographies du manhal sâfî, Le Caire, 1932.

Wiet, L'Historien Abûl Mahâsin, BIE, XII (1929 — 1930). pp. 89 — 105.

Wiet, Histoire des Mamlouks Circassiens, t. II, Le Caire, 1945.

Wiet, Journal d'un bourgeois du Caire, t. I — II. Paris, 1955 — 1960.

Wiet, Inscription Mobilière de l'Egypte musulmane; JA, CCXLVI (1958).

Wiet, Lampes et bouteilles en verre émaillé. Le Caire, 1929.

Wiet, Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, Egypte, MIFAO, L II (II).

Wiet. Objets en cuivre, le Caire, 1932.

William (C. Hayes), The scepter of Egypt, Cambridge 1959.

Al-Yâfi (Abdallah). La condition privée de la femme

dans le droit de l'Islam (Thèse dactylographiée), Paris, 1925.

Zambaur (**De.**) Manuel de genealogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam, Hanoure, 1927.

Zampetti (**Pietro**), Vittore Carpaccio, Edizioni Alfieri Venezia, 1963.

Zetterstéen (**K.V.**), Beiträge zur Geschichte des Mamlûkensultane in den jahren 650 — 741 den Higre nach arabischen handschriften, Leiden, 1919.

فهرس

تم الايداع بدار الكتب تحت رقم ١٧٢٨ لسنة ١٩٧٥

دار الجيل للطباعة ١٤ ممر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

الناشر
مكتب الشريف وسعيد رأفت
١٩ (أ) ش الليث الزيتون

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة . الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦